مجلّة الجامعة الإسلاميّة

# اَلْمُسَبِّحَاتُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

## (دِرَاسَةٌ بَلاَغِيَّةٌ)

إِعْدَادُ :

**د. فَائِزَة بِنت سَالِم صَالِح أَحْمَد**

الأُسْتَاذِ الْمُسَاعِدِ فِي مَعْهَدِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي جَامِعَةِ أُمِّ الْقُرَى

## المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أمام المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن القرآن الكريم معجزة الله في الأرض، وهو معجزة بلاغية أعجز الجيل الذي نزل فيه، ولا يزال يعجز الأجيال حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ويبدو الإعجاز واضحاً حين نتأمل فواتح سور القرآن الكريم، وهي تنقسم إلى قسمين: قسم بدئ بالحروف المقطعة، وهذه ذهب العلماء في تفسيرها كل مذهب، وأفاضوا في بيان حقيقتها، فمما قالوه: أن عددها نصف عدد الحروف العربية، وقد وردت على حرف وعلى حرفين، وعلى ثلاثة، وعلى أربعة، وعلى خمسة(١).

والقسم الثاني بدئ بعشرة أنواع من الكلام حصرها صاحب الإتقان في:

١– الثناء عليه تعالى.
٢– حروف التهجي.
٣– النداء.
٤– الجملة الخبرية.
٥– القسم.
٦– الشرط.
٧– الأمر.
٨– الاستفهام.
٩– الدعاء.
١٠– التعليل(٢).

وستتناول هذه الدراسة التسبيح في مطالع سور القرآن الكريم، فالتسبيح الذي يعد جزءاً من الغرض الأول وهو الثناء على الله سبحانه وتعالى، فقد جاء الثناء بالتسبيح، وبالتحميد، وبتبارك.

---

(١) انظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي: ج٤ ص ٢.

(٢) ج٢، ص ١٣٥.

ولقد جاءت مطالع المسبحات في القرآن على أبلغ ما يجيء به الكلام، وهذا ما يسمى ببراعة الاستهلال في الكلام.

ولهذه المطالع صلة وثيقة بمقاصد السورة التي جاءت فيها، ذلك أن السورة الواحدة من القرآن هي أشبه بالبناء أو باللحمة، تترابط فيه موضوعات السورة وجمله بخيط رفيع، وقد اهتم العلماء بهذا النوع من الدراسة التي تبين وجه المناسبة بين كلمات وآيات وسور القرآن، وهذا ما سمي بعلم المناسبة، وقد عدّه العلماء باباً من أبواب الإعجاز بجانب النظم، فمثلاً يقول الفخر الرازي الذي اهتم بالمناسبات في القرآن: (ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة – أي سورة البقرة – وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته)(١).

وقد رأيت في هذه الدراسة أن أتناول السور المفتتحة بالتسبيح، وأبين صلته بالسورة بعد بيان كيفية ترابط آيات السورة وبنائها.

هذا وقد جاء لفظ التسبيح في القرآن بمتصرفات مختلفة في سبع سور على النحو التالي:

- المصدر ﴿سُبْحَـٰنَ﴾ في سورة واحدة، وهي سورة الإسراء.
- الفعل الماضي ﴿سَبَّحَ﴾ في ثلاث سور: الحديد، والحشر، والصف.
- الفعل المضارع ﴿يُسَبِّحُ﴾ في سورتين: الجمعة، والتغابن.
- الفعل الأمر ﴿سَبِّحِ﴾ في سورة واحدة وهي سورة الأعلى.

- **معنى التسبيح:**

السَّبْحُ والسِّبَاحَة هي العوم في الماء، وسبْحُ الفرس جريه، والسَّوابح هي

---

(١) التفسير الكبير، ج٧، ص ١٣٩.

**الخيل، والنجوم تسبح في الفلك سبحاً إذا جرت في دورانها.**

**وجاء السَّبح في القرآن في معاني مختلفة، فمنها: السَّبْح: التباعد، قال تعالى:** ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾(١)**، ومنها: الجري وسرعة الذهاب في العمل، قال تعالى:** ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾(٢)**، وسميت النجوم التي تسبح في الفلك بالسابحات** ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحًا﴾(٣)**.**

**ويأتي التسَّبيح بمعنى التتريه** ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾(٤) **معناه تتريه الله تعالى عن كل ما لا ينبغي، وأصله المرُّ السريع في عبادة الله، وجعل التسبيح عاماً في العبادات قولاً كان أو فعلاً أو نية، قال تعالى:** ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾(٥) **قيل من المصلين،** ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ﴾(٦)**،** ﴿وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾(٧)**،** ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾(٨)**،** ﴿لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾(٩)**. كما أنها تأتي بمعنى التعجب، فالعرب تقول سبحان من كذا، إذا تعجبت منه(١٠).**

---

(١) سورة المزمل، آية (٧).

(٢) سورة يس، آية (٤٠).

(٣) سورة النازعات، آية(٣).

(٤) سورة الروم، آية(١٧).

(٥) سورة الصافات، آية (١٤٣).

(٦) سورة البقرة، آية (٣٠).

(٧) سورة آل عمران، آية (٤١).

(٨) سورة ق، آية (٤٠).

(٩) سورة سورة القلم، آية (٢٨).

(١٠) انظر: لسان العرب: ج٢، ص ٤٧٠ – ٤٧١، المفردات في غريب القرآن: ص ٢٢١ – ٢٢٢.

وقد ورد التسبيح في القرآن بصيغ مختلفة: ﴿سُبْحَٰنَ﴾، ﴿فَسَبِّحْ﴾، ﴿يُسَبِّحُ﴾، ﴿تَسْبِيحَهُۥ﴾، ﴿تُسَبِّحُ﴾.

ووردت في الكلام بصيغ أخرى منها: "سُبُّوح" في وصف الله تعالى سُبُّوح قدوس"، لأنه يُسبَّح ويقدَّس، قال ثعلب: (كل اسم (فَعُّول) فهو مفتوح الأول إلا (السُّبوح القُد وس) فإن الضم فيها أكثر، وهما من أبنية المبالغة، والمراد به التتريه ".

ومن مشتقاها "سُبُحات وجه الله" بضم السين والباء، أي أنواره وجلاله وعظمته، وتأتي كلمة " السُّبْحة " بمعنى الدعاء، وصلاة التطوع والنافلة، ومنها: السُّبحة: الخرزات التي يعد المسبح بها، وهي كلمة مولدة(١).

- **أنواع التسبيح:**
- **أولاً: التسبيح بالمصدر:**

سورة واحدة في القرآن بدئ مطلعها بالتسبيح بالمصدر، وهي سورة الإسراء، وتسمى سورة بني إسرائيل، جاءت بعد سورة النحل، ولها ارتباط بأواخرها، فلما قال تعالى في سورة النحل: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(٢)، بيّن تعالى في سورة الإسراء شرع اليهود وشأنهم، فذكر تاريخهم وما شرع لهم في التوراة، وعصيانهم وفسادهم في تخريب المسجد، ثم ذكر استفزازهم للنبي ﷺ وعزمهم على إخراجه من المدينة، وذكرت السورة خطاب موسى عليه السلام مع فرعون، فالسورة تفرق بين دعوة الرسول ﷺ، وموقف اليهود منه ودعوة موسى عليه السلام وموقف فرعون منه.

---

(١) لسان العرب، لابن منظور: ج٢، ص ٤٧٠.

(٢) سورة المجادلة، آية (٢١).

ثم لما كان افتتاح هذه السورة بالتسبيح جاءت بعدها سورة الكهف بالتحميد، والتسبيح يسبق التحميد.

وكما افتتحت السورة بالتسبيح فقد جاء التسبيح أيضاً في ثنايا السورة بصيغ مختلفة ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾(١)، ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾(٢)، ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾(٣)، فالآية الأولى أمر للرسول ﷺ بالتسبيح، والثانية تسبيح بلسان عباده الصالحين، والثالثة تنزيه عام من الله تعالى.

كما تكرر التسبيح بصيغ مختلفة ثلاث مرات في آية واحدة في قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَاتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(٤)، هذه الآية تؤكد عموم تسبيح كل شيء لله تعالى مما في هذا الوجود، فذكرت أولاً خبر تسبيح السموات السبع والأرض، ثم تسبيح المخلوقات التي في السموات والأرض، ثم عموم تسبيح كل شيء، ونلاحظ هذا التدرج في المعاني، ثم جاءت ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ﴾ بالتوكيد بـ(إن) التي بمعنى (ما)، و(من) الزائدة التي تفيد استقصاء كل ما يدخل تحت شيء من ذي عقل وغيره، وجاء الأسلوب بالقصر.

---

(١) سورة الإسراء، آية (٩٣)

(٢) سورة الإسراء، آية (١٠٨).

(٣) سورة الإسراء، آية (٤٣).

(٤) سورة الإسراء، آية (٤٤).

وكان الصحابة ﷺ يسمعون تسبيح الطعام، وتسبيح الحصى، وحري بنا تأمل هذه الآية والإيقان بخضوع كل من في الكون له سبحانه وتعالى.

وسورة الإسراء سورة عظيمة أكدت حادثة الإسراء إلى المسجد الأقصى، وهي مكية إلا بعض آياتها، وتدور السورة حول إثبات أن القرآن وحي من عند الله.

افتتحت السورة بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾، و﴿سُبْحَٰنَ﴾ مصدر سبح تسبيحاً مخففة بمعنى نزه تنزيهاً حتى صارت علماً للتنزيه، دالة على أبلغ ما يكون من معناها، وفي التسبيح إشارة إلى التعجب من هذه القصة وأنها من الأمور العظيمة التي لا يمكن وصفها، وأصل صيغ التسبيح هو كلمة (سبحان الله) ومنها جاءت مشتقاتها إما بالإضمار ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾(١)، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾(٢) أو بالموصول ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾(٣) وهي تفيد التعجب من القدرة الإلهية من هذه الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى، كما أن فيها دعوة للتأمل وملاحظة ما ورد في السورة.

وتتكون الآية في السورة من ثلاث جمل: قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾:

- الجملة الأولى: جملة: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ جملة

---

(١) سورة البقرة، آية (٣٢).

(٢) سورة النساء، آية (١٧١).

(٣) سورة يس، آية (٣٦).

اسمية مع صفتها ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾

– والجملة الثانية: جملة سببية ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَـٰتِنَآۚ﴾، ثم جملة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ جملة تذييل للتأكيد، وفي التعدية بالــ(باء) في ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ دلالة على أن الله كان معه برعايته وتوفيقه، وأن هذا الإسراء لا يقدر عليه إلا الله.

والمراد بــ(عبده) محمد ﷺ، ولم يخاطب الله رسوله في القرآن باسمه أبداً، فهو عبده، وهو عبد الله، وهو النبي، وهو الرسول، بينما نادى الله الرسل الآخرين بأسمائهم فقال: ﴿يَـٰمُوسَىٰ﴾(١)، ﴿يَـٰنُوحُ﴾(٢)، وفي هذا النداء تشريف لهذا النبي ﷺ، و﴿ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ هو الكعبة وما حولها من فناء، وهو غير البيت الحرام، والبلد الحرام، و ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ هو بيت المقدس الذي بناه سليمان ﷺ، ووصف بأنه مبارك حوله، وكون البركة حوله دلالة على حصول البركة فيه.(٣)

وذكر تعالى سبب الإسراء ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَـٰتِنَآۚ﴾ بهذه الجملة الموجزة، ذلك أن الرسول ﷺ رأى من الآيات التي دلت على اصطفائه وتكريمه، ذلك أنه رأى المسجد وصلى فيه بالأنبياء جميعاً، وفي انتقال الخطاب من الغيبة إلى الخطاب في ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَـٰتِنَآۚ﴾ إثبات أن الإسراء كان حقيقة، ذلك أن التسبيح يستدعي الإبعاد عن النقائص وهو مقام غيبة الأذهان عن هذا الأمر، ثم انتقل إلى مقام المشاهدة، وهو ما يدل على حقيقة حادثة الإسراء، فناسب أن ينتقل من الإضمار إلى المشاهدة الواقعة رأي العين وبالتالي تدل على صدق هذه

---

(١) سورة البقرة، آية (٥٥).

(٢) سورة هود، آية (٣٢).

(٣) انظر تفسير الفخر الرازي: ج ٢، ص ١٤٧.

الحادثة.

ثم تأتي الآية الثانية للحديث عن موسى وقومه تمهيداً للحديث عن بني إسرائيل وإفسادهم في الأرض قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ وهي معطوفة على جملة ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ والمعنى سبحان من أسرى بعبده وآتى موسى الكتاب، وفي ذلك تأصيل أن الله أرسل الرسل لهداية الإنسان فلا فرق بينهم في أن محمداً ﷺ منّة وكذلك موسى عليه السلام كان منّة على بني إسرائيل.

وجاءت ﴿وَءَاتَيْنَا﴾ بأسلوب المتكلم للتعظيم غراراً على ما قبلها ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ فهاتان منتان عظيمتان على الخلق، والمراد بالكتاب التوراة، وقد كرمهم الله بأن حملهم على سفينة نوح عليه السلام وأنجاهم من العذاب، وفي وصف نوح بأنه ﴿عَبْدًا شَكُورًا﴾ تعريض لهم، وأنه كان الأولى بهم أن يكونوا مثل أبيهم.

ثم لما بين تعالى إنعامه على بني إسرائيل بإنزال التوراة أردفه ببيان أنهم ما اهتدوا به بل وقعوا في الفساد ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾⁽¹⁾ وهذه الآيات معطوفة على ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ وقد ذكرت تاريخ إفسادهم في أرض المقدس، وأنهم أفسدوا في الأرض مرتين فسلط عليهم من يعذبهم، وتفصيل هذه الحوادث مذكور في كتبهم كما ذكر علماء التفسير.⁽²⁾

---

(١) سورة الإسراء، آية (٤).

(٢) انظر تفسير التحرير والتنوير: ج ١٥، ص ٣٤٢

والآيات بينت فضل هذا المكان الذي أسري إليه رسول الله ﷺ، وكيف أن اليهود سكنوه لكنهم لم يعظموا أمره، بل أفسدوا في الأرض، وفي الآيات إشارة إلى أن على المؤمنين أن يعظموا هذا المكان الذي أسرى إليه نبيه ﷺ وبارك حوله، وبركة ما حوله يعني بركته، وقد تحقق قدر الله ؛ فعاد اليهود إلى الإفساد في هذا المكان في هذا العصر.

ولما تمت هذه الآيات اتبعت بذكر فضل القرآن الكريم الذي أنزله الله على نبيه تأييداً ومعجزة كمعجزة الإسراء، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(١).

فهذه الآيات أشادت بفضل القرآن على أثر ما ذكر من قصة بني إسرائيل حين خالفوا كتاهم مما يثير الخشية في نفوس المؤمنين من أن يصيبهم مثل ما أصاب بني إسرائيل حين خالفوا، وأكدت هذه الجملة بـ(إن) و (هذا) للإشارة بعظمته، ثم أبهم الاسم الموصول والضمير ﴿لِلَّتِى هِىَ﴾ إشارة إلى الطريق أو الهداية، وفي هذا الإبهام فخامة وروعة، وهزة في النفس لم تحصل إن لم يبهم.

ثم وصف هذا الطريق بـأنه ﴿أَقْوَمُ﴾، ففي القرآن إرشاد لم تبلغه أي من الكتب السابقة، وهذه الآية من آيات الإيجاز التي وصفت ما في القرآن الكريم من هدي قويم بطريقة مختصرة بليغة. ثم ذكر تعالى بعض نعمه على الإنسان، فذكر نعمة الليل والنهار وآيتيهما، ثم ذيلت الآية بقوله تعالى

---

(١) سورة الإسراء، آية (٩ – ١٠).

**﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾(١) وهذا التذييل فتح الباب للحديث عن أحوال الناس يوم القيامة، وكيف أن كل إنسان يقرأ كتابه بنفسه ولا يتحمل عنه وزره أحد؛ لأنه قد أرسلت إليه الرسل. قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾(٢) ثم ضربت الأمثال لإهلاك القرون التي كذبت، ثم بين عطاء الله لمن أراد الدنيا ولمن أراد الآخرة.**

**ثم أردفه التوجيه الإلهي بأعمال تدخل الجنة لمن أراد الآخرة خطاباً للرسول ﷺ وللمؤمنين من بعده، وجاءت بأسلوبي الأمر والنهي وعدت خمسةً وعشرين أمراً ونهياً(٣)،**

**بدئت وختمت بالنهي عن الشرك، قال تعالى:** ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا. وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۞ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا. رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا. وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا..... ۞ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ

---

(١) سورة الإسراء، آية (١٢).

(٢) سورة الإسراء، آية (١٣).

(٣) انظر تفسير الفخر الرازي: ج٢٠ ص ٢١٤ – ٢١٥

مَلُومًا مَّدْحُورا﴾(١)، وفي ابتداء الآيات بالتوحيد وختامها به دلالة على أن كل عمل لابد أن يقوم على التوحيد، فمن أجله أرسلت الرسل وأنزلت الكتب.

ثم تحدثت الآيات عن سبب إنزال القرآن مصرفاً أي مبيناً على هذه الطريقة من البيان والعبر والحكم والأمثال والأحكام أحياناً بالوعد أو الوعيد، أو الأمر والنهي، والمحكم والمتشابه حتى يتذكروا ويتعظوا، ولكن ما يزيدهم هذا التصريف إلا نفوراً عن السماع فضلاً عن التذكير لجهلهم، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾(٢)

ثم جاءت جملة استئناف تأمر النبي ﷺ بالرد عليهم فيما قالوه من تعدد الآلهة، وتنــزه الله بالتسبيح قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا. سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا. تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(٣) المخاطب هنا هو الرسول ﷺ، والقرآن دائماً يخاطب أهل الإيمان مباشرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾(٤)

أما أهل الكفر والفساد فيعرض عنهم ويأمر النبي ﷺ يخاطبهم كما في قوله تعالى لليهود ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(٥)، ﴿قُلْ كُونُواْ

---

(١) سورة الإسراء، آية (٢٣ – ٣٩).

(٢) سورة الإسراء، آية (٤١).

(٣) سورة الإسراء، آية (٤٢– ٤٤).

(٤) سورة البقرة، آية (١٠٤).

(٥) سورة الجمعة، آية (٦).

حِجَارَة أَوْ حَدِيدا﴾(١) ومثل هذه الآيات وغيرها كثير في القرآن وهو حري بالدراسة والوقوف على بلاغة هذه الأساليب.

فهم قد كبتوا بالحجة المقنعة بفساد قولهم، وجملة﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾(٢) جملة اعتراضية تبين كذبهم وافتراءهم، وأنه ليس إلا قولاً ليس له حقيقة، وقد بنيت الآية على مقدمة ونتيجة عقلية تكبتهم، فالجملة الشرطية ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ و(لو) حرف امتناع لامتناع، أي امتناع حصول الجواب لامتناع الشرط، فلما لم يكن هناك من سعي إلى مغالبة ذي العرش دل ذلك على امتناع وجود آلهة معه.

وفي وصفه بأنه ذو العرش تنزيه له، وبيان لعظمته وعلو شأنه، وأن العرش هو مطمع من أراد الملك، ثم نزه تعالى نفسه عما ادعوه بسبحان ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾(٣)، وبعد أن سبح نفسه بيّن تعالى أن كل من في السموات والأرض يسبح له ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(٤)، وهي جملة حالية من الضمير في سبحانه، وقد قيدت السموات بالسبع لتأكيد إحاطته بالملك في السماء حيث عرشه.

وقد أسند التسبيح للسموات والأرض بالفعل المضارع الدال على التجدد والحدوث، المشعر بالاستمرار، ثم في تقييد السموات بالسبع؛ لأن كل

---

(١) سورة الإسراء، آية (٥٠).

(٢) سورة الإسراء، آية (٤٢).

(٣) سورة الإسراء، آية (٤٣).

(٤) سورة الإسراء، آية (٤٤).

سماء فيها شأن من شؤون الأرض، أما الأرض فلم تقيد لأن الحياة والتكليف على سطح الأرض.

ثم قال: ﴿وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ أي من في السموات والأرض من مخلوقات من انس وجن وملائكة، ثم تعدى التسبيح إلى ما هو أشمل فقال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ﴾ أي وما من شيء، وهذا إغراق في النفي، أي كل شيء ينزهه بحمده أي بوصفه بماله من صفات الكمال، وجاء هذا المعنى بأسلوب القصر لتذكير هذا المعنى، ثم جاءت جملة الاستدراك رداً على من يتبادر إلى ذهنه أن الجمادات لا يكون منها تسبيحاً فقال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيما غَفُورًا﴾.

فالتسبيح استخدم على سبيل الحقيقة والمجاز معاً، فهو حقيقة في الإحياء تقول بلسان الحال سبحان الله، وفي الجمادات على الوجه الخاص بها، ثم ذيلت بأنه حليم على من جعل له شريك، غفور لمن تاب وآمن، وهكذا فالتسبيح في أول السورة جاء ابتداءً وتعجباً من قدرته على الإسراء بالنبي ﷺ، وهنا جاء للرد على من أشرك بالله.

ثم تتوالى آيات السورة للحديث عن القرآن وموقف الكفار منه في عدة مواضع بين ثنايا موضوعات السورة، وفي آية ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾(١) ذكر الله تعالى أن في القرآن من كل مثل يقنع الكفار بالإيمان لكنهم نفروا، وطلبوا من الرسول ﷺ ستاً من المعجزات، فجاء الرد الإلهي ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾(٢).

---

(١) سورة الإسراء، آية (٨٩).

(٢) سورة الإسراء، آية (٩٣).

إذن ففي الآية السابقة ادعى الكفار الشركاء، فنزه الله نفسه، وهنا أرادوا معجزات من الرسول ﷺ فنزه الله نبيه؛ لأنه ليس إلا بشراً، فالكفار في الأولى تعدوا على الله، وفي الثانية تعدوا على رسول الله ﷺ فجاء التتريه بـ (سبحان)، ثم بين تعالى موقف أهل القرآن الذين يخرون سجداً، ويسبحونه حين يسمعونه ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾(١).

ثم تختم السورة بالحث على دعاء الله باسمه الأعظم الله، أو الرحمن، أو أي اسم من أسمائه الحسنى، ثم الحث على حمده وتكبيره.

وهكذا نجد الأمر بتعظيم الله وتتريهه على وجه التدرج، وبدأت بالتتريه بالمصدر، وأمرت بالتسبيح في وسط السورة، ثم حمده وتكبيره في أواخرها، وهذا غاية التعظيم.

- ثانياً: التسبيح بالفعل الماضي:

جاء التسبيح بالفعل الماضي ﴿سَبَّحَ﴾ في فاتحة ثلاث سور من سور القرآن، وهي: الحديد، والحشر، والصف، ولم تأت متتالية بل فصل بين كل سورة وأخرى بسورة تخلو من التسبيح، فبين الحديد والحشر سورة المجادلة، وبين الحشر والصف سورة الممتحنة.

وسنتناول كل سورة بالدراسة والتحليل لمطلعها، وصلة ذلك بموضوع السورة.

- سورة الحديد:

تعد سورة الحديد ثاني سورة في ترتيب القرآن بدئت بالتسبيح بعد سورة الإسراء، والتسبيح فيها بالفعل الماضي، واختلفت في كونها مكية أم مدنية (٢)،

---

(١) سورة الإسراء، آية (١٠٨).

(٢) انظر تفسير التحرير والتنوير: ج ٢٧ ص ٣٥٣.

واتفق الجمهور على أنها مدنية، وعدت السورة الخامسة والتسعين في ترتيب نزول السور، جاءت بعد سورة الواقعة التي ختمت بالتسبيح ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾⁽¹⁾، فكانت كالتتمة لها حيث بدأت بالتسبيح باسم الله الأعظم وهو الله في ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾⁽²⁾.

سميت بالحديد لأنها تحدثت في أواخر السورة عن قدرة الله في إنزال الحديد من السماء، وإلهام الناس صنعه ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ..﴾⁽³⁾.

ومقاصد السورة:

١- تسبيح الله وتتريهه بصفات تدل على عظمته وقدرته في آيات ست.

٢- الحث على الإيمان والإنفاق.

٣- الحياة الدنيا.

٤- فضل الله في إرسال الرسل.

٥- نداء الذين آمنوا.

واشتمل مطلع السورة على التسبيح، والتذكير ببعض صفات الله العظيمة، وسعة قدرته، وعموم تصرفه وسعة علمه، قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ

---

(١) سورة الواقعة، آية (٩٦).

(٢) سورة الحديد، آية (١).

(٣) سورة الحديد، آية (٢٥).

مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(١).

وللسورة صلة بما قبلها، ذلك أن سورة الواقعة ختمت بقوله تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾(٢)، ثم جاء التسبيح لله في مطلع هذه السورة، فذكر اسمه الأعظم، وذكر لفظ الله دون غيره كالخالق والمدبر أو الربّ، واسم الله هو الاسم العلم الذي يعني أنه الإله المتفرد بالألوهية، ثم أُتبع هذا الاسم بصفات تفرد بها الله سبحانه وتعالى، هذه الصفات صفات ربانية تدل على كماله، فكان من براعة الاستهلال أن يذكر الأعظم ثم يتبع اسمه بإحدى عشرة صفة جامعة لصفات الكمال وهي:

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾، ﴿وَٱلْأَخِرُ﴾، ﴿ٱلظَّٰهِرُ﴾، ﴿ٱلْبَاطِنُ﴾، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وجاء التسبيح بصيغة الماضي للدلالة على أن أمر تنزيهه تعالى أمر مقرر منذ الأزل، و(سبح) من الأفعال المتعدية، فأقول سبح العبد الله، وسبحت الله، ولكنه جاء هنا متعدياً باللام ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ وهي اللام التي سماها النحاة (لام التبيين)(٣)، وهي تبين شدة لصوق الفعل بالمفعول، أقول: شكرته وشكرت له، نصحته ونصحت له، فيكون التسبيح لأجل الله خالصاً له ودلالة على قربنا منه، وقد تكون اللام لام الاستحقاق(٤)، وهي التي تقع بين معنى وذات.

---

(١) سورة الحديد، من آية (١ – ٤).

(٢) سورة الواقعة، آية (٩٦).

(٣) انظر: مغني اللبيب: ١ / ٢٢٠ – ٢٢١.

(٤) انظر: مغني اللبيب: ١/ ٢٢٠ – ٢٢١.

(وما) موصولة بمعنى كل من في السموات والأرض، وجاءت (ما) لغير العقلاء للدلالة على أن كل ما خلق الله يسبح له وينزهه، وواقع تحت حكمه عاقل وغير عاقل، فانجر العاقل مع غير العاقل، و(ما) هذه تخفي وراءها عوالم مجهولة قد لا يدرك كنهها إلا الله تقع تحت سيطرته سبحانه وتعالى.

وقد يأتي التسبيح بـ(من) قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾(١)، والمراد بها المخلوقات المكلفة، وقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾(٢)، و(من) هنا تدل على العقلاء لأن التسبيح في سورة النور جاء في سياق ذكر أحوال المؤمنين والكافرين.

وعطف الأرض على السماوات دون إعادة (ما) كما سيأتي في السور الأخرى، وكأن السموات والأرض هنا شيء واحد واقع تحت سيطرته تعالى.

ثم ختمت الآية بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله، فالعزيز الحكيم: هو المستحق للتسبيح والتنزيه، فالعزيز: من عزَّ، وهو القادر الذي لا يغلب ولا ينازعه ولا يخالفه أحد، وهو الذي يقْهرُ ولا يُقهَر(٣)، والحكيم: الموصوف بالحكمة الذي يضع الأمور في مواضعها فلا يخطئ، ولا يتخلف ولا يحول دونه حائل(٤).

ثم تأتي الآية الثانية ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، الآية مكونة من ثلاث جمل: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ

---

(١) سورة الإسراء، آية (٤٤).

(٢) سورة النور، آية (٤١).

(٣) مفردات القرآن: ص ٣٣٣.

(٤) تفسير ابن عاشور: ج ٢٧، ص ٣٥٨.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فالأولى جاءت بالتقديم الذي يفيد الاختصاص، والثانية بالمضارع الذي يدل على التجدد والحدوث في كل وقت، والثالثة جملة اسمية جاءت بالتعريف للتوكيد، الجملة الثانية تؤكد الأولى، وتأتي الثالثة تذييلاً ونتيجة.

والآية تثبت قدرة الله في الكون، والجملة كلها تبين علة للتسبيح؛ لأن من له ملك العالم العلوي والسفلي حقيق بالتنْزيه، وقدم الجار والمجرور للقصر والاختصاص، فالملك له لا لغيره، ومناسبة الجملة لما بعدها أن من له حق التصرف فهو قادر على الإحياء والإماتة.

ثم جاءت جملة التذييل معطوفة بالواو لبيان عموم القدرة على كل موجود، وهي جامعة للصفات السابقة، فمن له الملك قادر على الإحياء والإماتة، ويكون بذلك قادراً على كل شيء، فالجملة عممت بعد أن خصصت. ثم تأتي الآية ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فإذا كانت الآية السابقة تبين قدرته فهذه تبين علمه، ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ هو السابق على جميع الموجودات، ﴿وَٱلْآخِرُ﴾: الباقي بعد فناء الموجودات، ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾: أي أدلة وجوده ظاهرة، ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾: الخفي محجوب عن إدراك الحواس الظاهرة، فهو ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾(١)(٢).

وفي تعريف جزئي الجملة دلالة القصر، وفي العطف إشعار بأن الصفات متضادة المعاني في أصل موضوعها، ولرفع وهم من يستبعد هذه الصفات في ذات واحدة، لأن الشيء الواحد لا يكون ظاهراً وباطناً من وجه واحد، فلأجل

---

(١) سورة الأنعام، آية (١٠٣).

(٢) ابن عاشور: ص ٣٦٢ ج ٢٧.

**هذا حسن العطف كما في عطف** ﴿ ثَيِّبَـٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾(١)**، فالواو رفعت للتناقض بين الصفتين**(٢).

**ثم يعطف على هذه الصفات جملة** ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ **تأكيداً لصفاته السابقة الذكر، أي تأكيداً لعلمه، بعد أن أفاد التذييل في الآية السابقة تأكيد قدرته** ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، **فالقدرة والعلم من أظهر صفاته تعالى.**

**ثم جاءت الآية الرابعة في بيان صفاته أيضاً، قال تعالى:** ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

**هذه الآية جامعة للصفتين السابقتين في الآيتين القدرة والعلم، فهناك** ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **وهنا قدرته على خلق السموات والأرض، وهناك** ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ **وهنا** ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

**والآية تتكون من جمل:** ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ﴾، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

---

(١) سورة التحريم، آية (٥).

(٢) انظر: دلالات التراكيب محمد أبو موسى، نشر مكتبة وهبة، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.

والجملة الأولى بيان لجملة ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.... لأن مما يدل على ملكه أنه خلق السموات في ستة أيام، والجملة ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾... جملة استئناف تقرر علمه بكل شيء فكأنها بيان لجملة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وجاء هذا جارياً على طريق النشر واللف في البديع، فقد جاءت آيتين إحداهما تدل على قدرته، والثانية على علمه، ثم فصلتا في الآية التي بعدها.

وبعد أن بيّن الله تعالى إحاطة علمه بما في السماء والأرض بطريق التقابل البديعي بين علمه بأفعال العباد ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ والمعية هنا تمثيل كنائي عن العلم بجميع أحوالهم، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ولنتأمل هذا الترتيب والتدرج العجيب في الآيات، فبعد أن بيّن كونه إلهاً لجميع الممكنات بيّن كونه إلهاً للعرش والسموات والأرض، ثم بيّن معيته لنا وعلمه بظواهرنا وبواطننا؛ لأنه القادر العالم.

ثم يبين تعالى أن كل الأمور سترجع إليه، وفي ذلك إثبات يوم البعث والجزاء، قال تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، وقد كررت ملكيته للسموات والأرض تأكيداً لألوهيته وتمهيداً لما بعدها ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي إليه وحده ترجع جميع الأمور، وقد بنيت العبارتان على التقدير الذي يفيد الاختصاص، فالتقدير في ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بنى عليها تصرفه في الحياة والموجودات، وهنا بنى التقدير على معنى رجوع كل الموجودات إليه، إذن فإحداهما أثبتت ملكيته في الدنيا، والأخرى بينت ملكيته في الآخرة، وهذا من أسرار التقدير في الجمل.

ولسائل أن يسأل عن سبب إعادة اللفظ في المكان القريب من الأول فقد قال تعالى ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، وقال بعده بآيتين ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾، وصلتها في الأولى بقوله ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾، ثم صلتها في الأخرى بقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾، الجواب: المعنى أن الملك لله أولاً وآخراً، فالأول في الدنيا وهو وقت الإحياء والإماتة، والآخر في الآخرة حين ترجع الأمور إليه حيث لا ملك سواه، فقرن بالأول يحي ويميت لأنها من إمارة الملك، وقرن بالآخر ما يكون في الآخرة من مراجع الخلق وجزائهم بالثواب والعقاب إليه، فجاء في كل مكان ما اقتضاه(١).

ثم تختم آيات قدرته بقوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(٢)، وهذه الآية جامعة بين قدرته في الكون وعلمه بدقائق ما في الصدور، والتعبير في الجملة الأولى بالمضارع والتقابل بين الجملتين، وفي المضارع دلالة تجدد هذه الظاهرة، وجاءت الجملة الثانية بالاسمية دلالة ثباها ودوامها، وفي تكرار هذه المعاني بطرق مختلفة بعث على النظر والتأمل، وقد جمعت الآيات السموات والأرض دون فاصل بينهما في أربع آيات ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾، فلما كان افتتاح السورة يقتضي الجمع بينهما في نظم

---

(١) انظر: درة التتريل وغرة التأويل للخطيب الأنصاري: ص ٤٧٠ – ٤٧١،

(٢) سورة الحديد، آية (٦).

واحد دون الفصل (بما) كما في سور التسبيح الأخرى اقتضى ذلك أن تسير بقية السورة على نسقه في جمع المخلوقات في عقد واحد.

وبعد تمجيد الله وإثبات وحدانيته وقدرته وعلمه، وبيان خضوع كل المخلوقات له، واطلاعه على أحوالهم الظاهرة والباطنة، جاء الأمر والتكليف، ذلك أنه لما تمكن تقديس الله في نفس الإنسان؛ لأنه المتفرد بالعلم والقدرة صار قلبه مفتوحاً لتلقي أوامر الله فأمره بالإيمان والنفقة.

قال تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾(١) هذه الآية جاءت كالنتيجة بعد الاستدلال على قدرته وملكيته بذكر أمرين عظيمين، كأن مدار السورة كلها عليه، الأول: الأمر بالإيمان بالله تعالى، والثاني: الإنفاق في سبيل الله.

وكأن مطلع السورة حين ذكر هذه الصفات المقدسة لله جل شأنه يستدرج النفوس ويغرس فيها معرفة صفات الخالق الذي هو معكم أينما كنتم، وبصير بما تعملون، حتى إذا انغرست في النفوس من الحب والإجلال والهيبة أمرهم بما يشاء، وأمر عباده بهذين الأمرين من الأهمية بمكان، فهما أساسا الانقياد، وفي اقتران الإيمان بالله بالإيمان بالرسول ﷺ بيان لأهمية هذه الرسالة، وأنها الأحق بأن تتبع، وأن الإيمان بالله لا يكون إلا مع الإيمان برسوله ﷺ، ثم أمرهم بالإنفاق. وقيل أن هذه الآية نزلت في غزوة تبوك في الحث على تجهيز جيش العسرة(٢).

ولم يأت الأمر بالإنفاق من الأموال، أو مما رزق الله بل قال: ﴿وَأَنفِقُواْ

---

(١) سورة الحديد، آية (٧).

(٢) التحرير والتنوير: ج ٢، ص ٣٦٨.

مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ دلالة على أن المال لله وأنهم خلفاء عليه، وأنه في أيديهم كالأمانة في يد الخازن، وأنه ليس للإنسان منه إلا ما يقيم حياته، والسين والتاء في ﴿مُّسۡتَخۡلَفِينَ﴾ للمبالغة في حصول الفعل، وفي هذه الكلمة حث على الإنفاق، وتسهيل للإنسان بأن ينفق لأنه متى ما علم أنه بمنزلة الخليفة في هذا المال، وأنه ليس ماله، وأنه لن يبقى سهل عليه الإنفاق، وقد مهدت الآيات قبلها في مطلع السورة لهذا في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾. ثم تأتي جملة الخبر بعد الأمر للترغيب في الإنفاق: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾، وقد عطفت الجملتان بفاء التفريع التي تفيد التعليل، فمن أنفق له أجر كبير.

وفي وصف الأجر بأنه كبير زيادة في الترغيب في الإنفاق.

ثم انتقلت الآيات لتمس الأمر الأول وتفصله، وهو الأمر بالإيمان بالله، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۞ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾(١)، الاستفهام للتوبيخ والتعجب من حالهم لعدم إيمانهم بربهم الذي رباهم بفضله ونعمه، والحال أنه أخذ الميثاق عليهم بالإيمان، والمراد بالميثاق هنا المذكور في سورة الأعراف: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾(٢)، فهذا الميثاق سيسأل عنه كل آدمي وما فعل به في دنياه.

---

(١) سورة الحديد، آية (٨ – ٩).

(٢) سورة الأعراف، آية (١٧٢).

ثم تأتي آية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾ استئنافية لتأصيل الإيمان بالرسول ﷺ بعد تأصيل عبادة الله قبلها، وكأن هاتين الآيتين جاءتا لتؤكد آية: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وتفصلها وتعللها.

ثم أتبع هذا التوبيخ بالاستفهام استفهاماً آخراً يوبخ من تقاعس عن الإنفاق على طريقة ونسق الاستفهام الأول، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(١).

وتتشابه الآيتان في الاستفهام (بما)، ثم قال هناك: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ﴾، هنا: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ﴾ سبق النفي (إن) المصدرية التي أدغمت في النفي، وفي زيادها زيادة في التوبيخ وذم للتقاعس عن الإنفاق.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ توكيد لقوله: ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ﴾ وفي كلٍ ترغيب للإنفاق في سبيل الله.

ثم بين تعالى تفاوت درجات المنفقين حسب تفاوت أحوالهم، بل إنه تعالى قدم الإنفاق على القتال لأهميته، ولأنه مدار الموضوع الذي بنيت عليه السورة(٢).، والمراد بالفتح فتح مكة، وتقدير الآية: لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح ومن أنفق من بعد الفتح، مثل: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ﴾(٣).

---

(١) سورة الحديد، آية (١٠).

(٢) انظر تفسير روح المعاني للالوسي: ح ٢٨ ص ٦٢

(٣) سورة الحشر، آية (٢٠).

**ثم جاءت جملة:** ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٌ كَرِيمٌ﴾(١) **تعليلاً لجملة** ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾**، وهي استفهام يفيد الحث والتحريض على الإنفاق، وقد شبه بالقرض الذي يكون عن طيب نفس، وكثيراً ما يشبه الإنفاق في القرآن الكريم بالقرض، قال تعالى في سورة البقرة:** ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾(٢)، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾(٣)، ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾(٤)، ﴿وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾(٥)**، والغرض من هذا التشبيه أن الإنسان إذا علم أن ما سينفقه سيعود إليه كما يعود القرض للإنسان؛ بادر إلى الإنفاق بطيب نفس.**

**ثم تجر هذه الآيات للإنكار على المؤمنين الذين قست قلوبهم إيقاظاً لهم، ويحمل الأسلوب التلطف في إيقاظ هذه القلوب التي غفلت وتلهت، وجاء الأسلوب بالاستفهام بالهمزة داخلة على النفي توبيخاً وإنكاراً وعتاباً، قال تعالى:** ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾(٦).

---

(١) سورة الحديد، آية (١٠).

(٢) سورة البقرة، آية (٢٤٥).

(٣) سورة المزمل، آية (٢٠).

(٤) سورة التغابن، آية (١٧).

(٥) سورة المائدة، آية (١٢).

(٦) سورة الحديد، آية (١٦).

**وقد نزلت هذه الآية بمكة عتاباً للمؤمنين، يقول عبد الله بن مسعود ﷺ: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذا الأمر إلا أربع سنين، وقد كانت هذه الآية بمثابة ناقوس ينبه المؤمنين المقصرين الراكنين، وتحذيراً لهم من التقصير، حتى قال ابن مسعودﷺ أيضاً: لما نزلت جعل بعضنا ينظر إلى بعض ونقول ما أحدثنا!.(١)**

**فالمقصود من الآية التحذير من أن يكونوا كأهل الكتاب في قسوة القلب لطول الأمد عليهم في مزاولة دينهم، وعليهم أن يحذروا من التفريط في دينهم على حدثان عهدهم، وكأن المراد من الآية الإخبار عن حال الذين أوتوا الكتاب من يهود ونصارى، ذلك أن أكثر سور التسبيح فيها ذكر لليهود والنصارى ومخالفاتهم.**

**و﴿يَأْنِ﴾ مشتق من اسم جامد وهو (الإنى) بفتح الهمزة وكسرها، أي بمعنى يحن الوقت، والمراد بذكر الله: إما ذكراً مطلقاً، أو ذكراً في الصلاة، وما نزل من الحق: هو القرآن، وقد يكون ذكر الله وما نزل من الحق هما القرآن الكريم.**

**ثم حذرهم تعالى من أن يكونوا مثل أهل الكتاب من يهود ونصارى، فشبه حالهم في ترك الخشوع بأهل الكتاب الذين كان من صفتهم أنهم طال عليهم الأمد، أي المدة بينهم وبين أنبيائهم، أو طال عليهم الأمل فحصلت قسوة القلب، ثم كانت النتيجة ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾، والفسق: الكفر والخروج عن الدين.**

**ثم مثل تعالى للقلوب المؤمنة الحية بالأرض التي تحيى بالمطر قال تعالى: ﴿اعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ**

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور: ح ٢٧ ص ٣٩٠.

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(١).

هذه الآية جاءت تعليلاً لجملة ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ فالقلوب المؤمنة تحتاج إلى ذكر الله كالأرض الميتة التي تحتاج إلى المطر، فحال الذكر في تزكية النفوس بحال الغيث في إحياء الأرض المجدبة، وهذه الآيات تبين علم الله بالنفوس وما يصلح لها فهي بيان لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وفي افتتاح الكلام بـ ﴿ٱعْلَمُوٓاْ﴾ دلالة على أهميته وأنه جدير بالعلم، وقد دخلت على الإخبار بإحياء الأرض بعد موهّا تمثيلاً للقلوب الحية، فكأن العبارة: اعلموا أن الله يحي القلوب بعد جهلها كما يحي الأرض بعد موهّا، وفي ذلك دلالة على أن القلوب لا يقدر على تغييرها إلا الله جلت قدرته، وأهّا كالأرض التي تموت أو هتز بالماء.

ثم استؤنفت آية تبين فضل المتصدقين بعد أن فصّلت جزاءهم في الآيات السابقة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾(٢) فهذه الآية كنتيجة وجواب لقوله تعالى قبلها: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾(٣)، فهذه جاءت استفهاماً للترغيب، والثانية خبرية كأهّا نتيجة لذلك الترغيب، ثم نلاحظ اختلاف الزمنين، فهنا بالمضارع وهناك بالماضي، وكأن الآية الثانية نتيجة للأولى، فدعوة الله للصدقة قد تحققت

---

(١) سورة الحديد، آية (١٧).

(٢) سورة الحديد، آية (١٨).

(٣) سورة الحديد، آية (١١).

وصارت ماضياً.

وبعد أن بينت الآيات فضل المتصدقين بينت فضل المؤمنين بالله ورسله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾(١)، فهذه الآية ذكرت جزاء المؤمنين، ويقابلها جزاء الكافرين في آية واحدة، وهذا من خصائص القرآن أنه يذكر جزاء المؤمنين ثم يتبعه بجزاء الكافرين أو العكس، وهذه من المقابلة البليغة التي يتصف بها هذا الكتاب المعجز.

وفي قوله: ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾ دلالة على أنهم هم المؤمنون الذين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾(٢) وهم الصديقون والشهداء الذين آمنوا بالله ورسله، وهم المتصدقون والمتصدقات الذين أنفقوا، فهاتان الآيتان جاءتا توكيداً للمعنيين الأصليين اللذين دارت عليهما السورة وهما: التصدق والإيمان، فأثبتت الأولى جزاء من تصدق وكأنه وقع، والثانية جزاء من آمن وأنهم صديقين وشهداء، وأن الأجر والنور الذي تحدثت عنه الآيات قبلها قد تحقق لهم.

ثم عقب تعالى بآية تبين ما هية الدنيا التي يعيش فيها الناس، قال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ

---

(١) سورة الحديد، آية (١٩).

(٢) سورة الحديد، آية (١٢).

وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾(١)، وهذا علم ثان في السورة، والصلة بينهما أن ما بعدهما أمر مهم، ولذلك ضرب له المثل، فالأول العلم بأن الله يحي القلوب كما يحي الأرض بالمطر، والثانية مثل للحياة الدنيا، وقد تكون المناسبة أنه تعالى لما ذكر أحوال الآخرة وما أعده الله للمؤمنين والكافرين أردفهم بذكر حقارة الدنيا، وفي ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ دلالة على أن ما بعده جدير بالاهتمام، وأنه يحمل معنى عظيماً يحتاج إلى فكر وتأمل، فهناك قلب يحيى ويثمر كالأرض التي تحيا، وهنا حياة لا تبقى كالزرع الذي أعجب الناس ثم صار حطاماً.

وقد وصفت الدنيا بخمس صفات: ﴿لَعِبٞ﴾، ﴿وَلَهۡوٞ﴾، ﴿وَزِينَةٞ﴾، ﴿وَتَفَاخُرُۢ﴾، ﴿وَتَكَاثُرٞ﴾، ونلاحظ التدرج في العطف بين هذه الصفات وكأنها تتحدث عن صفات الإنسان في أطوار حياته المختلفة حيث يبدأ لاعباً في صغره ثم متفاخراً في نهاية عمره، ولكل معناه.

وأكد هذا الأمر بالقصر بـــ ﴿أَنَّمَا﴾، وكثيراً ما وصفت الدنيا باللعب واللهو في مواضع عدة من القرآن، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾(٢)، ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾(٣)، ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾(٤).

---

(١) سورة الحديد، آية (٢٠).

(٢) سورة الأنعام، آية (٣٢).

(٣) سورة العنكبوت، آية (٦٤).

(٤) سورة محمد، آية (٣٦).

وقد قدم اللعب على اللهو لأنه أكثر، ولأن زمانه الصبا، واللهو زمانه الشباب، والزينة: هي تحسين الذات في أعين الناظرين أو تحسين المكان بما يجعل وقعه عند ناظره مسراً له⁽¹⁾، وهذا مما يغلب على أحوال الناس، والتفاخر: حديث المرء عن محامده وصفاته بالحق أو الباطل، وجاءت بصيغة(تفاعل) وقيدت ﴿بَيْنَكُمْ﴾ لأن شأن الفخر أن يقع بين اثنين أو أكثر، وهذا أكثر ما يكون في مرحلة الكهولة واكتمال الشدة، ثم عطف عليه التكاثر في المال والولد، ولا يبلغ الإنسان الكثرة في المال والأولاد إلا في آخر عمره في فترة شيخوخته، وفي كثرة العدد والعدة توزع النفس.

ثم يأتي المثل فيبين حال الدنيا في إقبالها ثم إدبارها كالغيث الناضر الذي أعجب زراعه لكنه لم يلبث أن صار يابساً مصفراً ثم حطاماً، والغيث: هو المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس، وصوره المثل دلالة على الحفاوة به، والكفار: هم الزرّاع سُموا بذلك لسترهم البذور في الأرض، وخصهم المثل لأنهم أهل بصر بالنبات ولا يعجبهم إلا المتفرد منه.

ثم لفت الأسلوب من الغيبة إلى الخطاب ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ لفتاً إلى هذه الحقيقة التي غفل عنها المعجبون بالزرع الذين لا يظنون ذهابه أو تغيره، وجاءت بـ﴿أَنَّمَا﴾ التي تفيد القصر دون غيرها لتبين أن حال الدنيا أمر مسلم ومعروف لدى الناس، وكذلك ختمت بالقصر بالنفي والاستثناء ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ وكأنه أمر غفل عنه أهل الدنيا.

وبعد هذا البيان لأمر الدنيا انتقل الخطاب إلى المؤمنين يرغبهم في تحصيل نعيم الآخرة، قال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

---

(1) التحرير والتنوير، ج٢٨، ص: ٤٠٢.

كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾(١)، الآية تتكون من ثلاث جمل:

الأولى: جملة الأمر بالمسابقة إلى المغفرة وإلى الجنة مع جملة التشبيه البليغ.

الثانية: استئنافية في بيان صفة الجنة وأنها أُعدت للذين آمنوا بالله ورسله.

والثالثة: جملة التذييل﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وفي اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ دلالة على عظمها – أي المغفرة والجنة – وارتفاع شأنها، وفي ذكر المسابقة إلهاب للنفوس، وحث لها على الحرص إلى بلوغ الجنة، وتحصيل لما يرضي الله، وكأننا في هذه الدنيا في ميدان منافسة ومسابقة، وهذه الجنة التي لها هذه الصفات أعدت للذين آمنوا بالله ورسله وكأنها تفصيل لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وهكذا تدور جل آيات السورة على بيان جزاء المؤمنين بالله ورسله وجزاء المتصدقين المنفقين.

ثم لما جرى في السورة من آيات ذكرت الدنيا وما فيها، وأنها متاع الغرور ذكر تعالى في السورة آيات تسلي المؤمنين على ما يجدونه في الدنيا من مصائب وآلام بسببها، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾(٢).

---

(١) سورة الحديد، آية (٢١).

(٢) سورة الحديد، آية (٢٢ – ٢٣).

بعدها استؤنفت آيات ذم الله فيها البخلاء بعد أن أثنى على المنفقين في آيات كثيرة، وكأنها جاءت بدلاً من التذييل في الآية السابقة ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾.

ثم استأنفت السورة معنى جديداً ناشئاً عما تقدم من ذكر الإنفاق والتحريض عليه وهو الإيمان بالرسل: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾(١).

ثم تحدثت السورة عن فضل الله بإرسال الرسل، فتحدثت عن إرسال نوح وإبراهيم وذريتهما، ثم ختمت السورة بذكر رسالة عيسى وموقف اتباعه منه، ثم موقفهم من الإيمان برسالة محمد ﷺ، وقد جاءت في ثلاث آيات: ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾(٢) تفضل الله على بني إسرائيل بعيسى وآتاه الإنجيل، وجعل في قلوب الذين اتبعوه الرأفة والرحمة، ثم إنهم ابتدعوا رهبانية ما كتبها الله عليهم مرضاةً لله، ﴿فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ﴾ قيل لأنهم حرفوا وجاءوا بالتثليث، أما الذين آمنوا بالرسول ﷺ فقد آتاهم الله أجرهم وكثير منهم كافر خارج عن الدين.

---

(١) سورة الحديد، آية (٢٥).

(٢) سورة الحديد، آية (٢٧).

ثم خاطب الله المؤمنين منهم وبين أجرهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾⁽¹⁾، وفي هذا النداء بالذين آمنوا تكريم لمن تبع رسالة محمد ﷺ من النصارى، ثم بين أن لهم كفلين من رحمته، والكفل: النصيب، أي لهم نصيبان من الجزاء لإيمانهم بعيسى ثم بمحمد ﷺ، ليس ذلك فقط بل يجعل لهم نوراً يمشون به ويغفر لهم، وفي ذلك إشارة إلى الذين آمنوا ممن يسعى نورهم بين أيديهم يوم القيامة، وهكذا يتكرر النور في هذه السورة، ويقصد به نور الإيمان الذي تشع به السموات والأرض.

ثم تختم الآيات بإزالة ما كان يعتقده أهل الكتاب من أن النبوة فيهم، فبين أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾⁽²⁾.

وهكذا نجد السورة تدور حول تحقيق أمرين: الإيمان بالله ورسوله، والإنفاق في سبيل الله، وهما يوجبان تنزيهه من كل نقص فكل من في السموات والأرض ينزهونه ويمجدونه؛ فلذلك بدئت بالتسبيح.

- سورة الحشر .

سورة مدنية نزلت سنة أربع من الهجرة، وتسمى سورة بني النضير⁽³⁾.

وموضوع السورة الحديث عن جلاء يهود بني النضير عن المدينة، وتتناول السورة عدة موضوعات تدور حول المعنى الأساسي للسورة، وتتصل بما قبلها

---

(١) سورة الحديد، آية (٢٨).

(٢) سورة الحديد، آية (٢٩).

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور: ج ٢٨ ص ٦٣.

**لأنه لما قال تعالى أواخر سورة المجادلة: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾(١) بين في هذه السورة غلبته للمعاهدين من أهل الكتاب وهم بنو النضير حين نبذوا العهد.**

**بدأت السورة ببيان قدرته فنزه نفسه من كل سوء، فذكرت أولاً نعمة إجلاء بني النضير عن المدينة، ثم بينت حكم أموالهم التي أتلفها المسلمون، ثم عظمت شأن المهاجرين والأنصار، كما أنها كشفت عن دخائل المنافقين ومواعدهم لبني النضير بأن ينصروهم، وكيف كذبوا وعدهم، ثم خاطب المؤمنين وأمرهم بالتقوى وذكرهم بأحوال الناس يوم القيامة، ثم بين عظمة القرآن، ثم ختمت السورة بذكر صفات عظيمة لله سبحانه وتعالى، وختمت بالتسبيح كما بدئت به ولكن بصيغة المضارع ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٢).**

**وقد بدئت السورة بالتسبيح بالماضي﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وهي جملة خبرية جاءت تذكيراً للمؤمنين حتى يسبحوا الله شكراً على ما أنالهم من فتح وجلاء ليهود بني النضير، كما أن فيها تعريفاً لهؤلاء اليهود الذين لم يخلصوا عبوديتهم لله ولم يؤمنوا برسوله، والحال أن من في السموات والأرض يسبح لله تعالى تسبيحاً منذ الأزل، لأن التسبيح تعظيم لله تعالى، والتعظيم يؤدي إلى الإيمان بكل صفات المعظم ومن ثم قبول كل ما يشرعه، فهؤلاء اليهود لم يقبلوا رسالة محمد ﷺ ولذلك فهم لم يحققوا التسبيح، على حين أن كل من السموات والأرض سبح لله.**

**وقد عطفت جملة ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على جملة ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ﴾**

---

(١) سورة المجادلة، آية (٢١).

(٢) سورة الحشر، آية (٢٤).

فأفرد تسبيح كل عالم على حده، على حين أن ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ عطفت على ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ في سورة الحديد، فجمع بينهما، فما السر البلاغي ؟

أقول: أن سورة الحديد تضمنت الاستدلال على عظمة الله وصفاته وانفراده بخلق السموات والأرض فكان دليل ذلك هو مجموع ما احتوته السموات والأرض من أصناف الموجودات(١)، يقول الخطيب الإسكافي: (عقد السموات والأرض في عقدة واحدة فكأن المعنى أن سبح لله ما في المكانين، فجاءت (ما) شاملة للخلق فيها، فانتظم المكانان نظماً واحداً فجعل الخلق فيهما خلقاً واحداً فلا يفصل بينهما بخلق، والقصد جمعهما في نظام واحد، ولم يكن هذا المعنى مراد آية في السور الأخرى)، فجمع ذلك في اسم واحد وهو (ما) الموصولة التي صلتها "في السموات والأرض ".

وعلى هذا النسق جاءت عبارات التتريه بعدها، فقال: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٢)، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾(٣)، ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾(٤)، أما هذه السورة فقد عطفت ما في الأرض على ما في السموات فأفردت كل عالم على حدة؛ لبيان وتأكيد إحاطته بالأكوان كلها، وأنه لا يغيب عنه شيء.

ومعنى ثانٍ وهو أن هذه السورة جاءت في ذكر نعم الله على المسلمين في الأرض، وهي نصرهم على بني النضير، فناسب أن يخص أهل الأرض باسمٍ

---

(١) انظر: تفسير ابن عاشور، ج٢٨، ص٦٤.درة التتريل وغرة التأويل للخطيب الاسكافي، ص٤٦٩ – ٤٧٠

(٢) سورة الحديد، آية (٢).

(٣) سورة الحديد، آية (٤).

(٤) سورة الحديد، آية (٥).

موصولٍ خاص بهم وهو (ما).

وبعد ذكر التسبيح جاءت جملة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾(١) علة لما تضمنه الخبر من تسبيح ما في السموات وما في الأرض، أو أنها جاءت بياناً لجملة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ لأن أمر إخراج اليهود من آثار عزته وحكمته؛ فهذه العلة تذكر بنعم الله على المسلمين، وأن عليهم شكر الله على ذلك النصر.

وفي تعريف جزئي الجملة بالضمير والموصول ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾ يفيد قصر صفة إخراج الذين كفروا من ديارهم على الله تعالى؛ وهو قصر توكيد لا يعتد بسعي المؤمنين، وفي ذلك بيان أن كل أمر لا يتحقق إلا بقدرته تعالى، فلما كان إخراج بني النضير على وجه تبدو فيه المعجزة؛ لأنهم كانوا أشد حرصاً على بقائهم في المدينة، وليس من السهل إخراجهم لأنهم أصحاب قوة ومنعة؛ جاء المعنى على القصر، وقد كان المسلمون يظنون أنهم هم الذين استطاعوا الإخراج بقوتهم؛ فقال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾ وفي التعبير باسم الموصول إفادة أن قصة الإخراج على هذه الصورة أثارت النفوس إلى التعرف إلى مصدرها وهي مختصة بالله تعالى، ولو حذف الموصول لفقدت الجملة هذه الخصوصية فتكون خبراً فحسب، ولذلك قال تعالى بعدها مخبراً عما يدور في نفوس المسلمين ونفوس اليهود ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّـهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

وقد سمى الله بني النضير بالذين كفروا من أهل الكتاب، وهم قبيلة من اليهود استوطنت بلاد العرب هم وأبناء عمومتهم بنو قريضة ويهود خيبر، وكانوا يسكنون حول المدينة، وقد بنوا لأنفسهم خمسة حصون في قرية تسمى الزُّهرة، وكان بينهم وبين الأوس والخزرج حلف، وقد وصفهم الله بالكفر لأنهم

---

(١) سورة الحشر، آية (٢).

كفروا برسول الله ﷺ، ونقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، ذلك أنهم جاءوا الرسول ﷺ بعد غزوة بدر مصالحين على أن لا يكونوا عليه أو له، وذلك خوفاً من المسلمين، فلما غُلب المسلمون في أحد راموا المصالحة مع المشركين، فقد خرج كعب بن الأشرف في أربعين منهم إلى مكة فحالفوا المشركين عند الكعبة على أن يكونوا عوناً لهم على مقاتلة المسلمين؛ فأوحى الله ذلك إلى نبيه ﷺ فأمر محمد بن مسلمة بقتل كعب بن الأشرف في حصنه فقتله، ثم أمر الرسول ﷺ بالسير إليهم سنة أربع من الهجرة وإخراجهم من قريتهم لكنهم امتنعوا، ودس إليهم عبد الله بن أبيّ بن أبي سلول أن لا يخرجوا من قريتهم، وقال لهم: إن قاتلكم المسلمون فنحن معكم، لكنهم أُخلفوا ما وعدوهم؛ فقذف الله الرعب والخوف في قلوبهم فطلبوا الصلح فأبى الرسول ﷺ إلا الخروج والجلاء من ديارهم؛ فخربوا بيوهم ليحملوا معهم ما ينتفعون به؛ فخرجوا فمنهم من لحق بخيبر ومنهم من لحق بالشام، وقليل منهم خرج للحيرة(١).

وقد ذُكرت القصة كاملة في هذه السورة على طريقة داعية إلى تسبيح الله وتتريهه لقدرته وتفرده.

وقد جاءت الآية الثانية علة للتسبيح قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ الآية تتكون من ثلاث جمل:

الأولى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن

---

(١) انظر: تفسير الرازي، ص ٢٧٩، ج ٢٩.

دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾.

الثانية: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

الثالثة: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم التذييل ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ جملة أمر.

فالأولى: بينت كمال عزته وقدرته واختصاصه بإخراجهم، والثانية. جاءت تعليلاً لجملة القصر، وهي جملتان الأولى ظن المؤمنين، والثانية ظن اليهود، وفي بناء هذه الجملة على هذه الطريقة فيه نظر، فالمعنى:وظنوا أن حصونهم تمنعهم، ولكن النظم جاء بتقديم الخبر وإسناد الجملة إلى ضميرهم؛ للدلالة على أنهم واثقين أشد الثقة بحصانة حصونهم، وأنهم في عزة وقوة وقدرة على مواجهة المؤمنين.

أما الجملة الثالثة فهي بيان لكيفية الإخراج؛ أي بيان للجملة الأولى وهي تتكون من ثلاث جمل: الأولى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾، والثانية: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾، والثالثة: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ودقق النظر في ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ عطفت بالفاء التي تعني السرعة والتعقيب والأخذ السريع، وفي ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ فيه المباغتة وإبراز القوة، ومخاتلة العدو الذي كان واثقاً من قوته، وفي ﴿يَحْتَسِبُواْ﴾ المبالغة في الحسبان أي الظن، وهؤلاء الذين يخادعون الله وهو خادعهم، وفي عطف ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ على ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ عطف للخاص على العام، فإتيان الله عام يتناول

أموراً كثيرة، ثم أفرد قذف الرعب، وعطف بالواو لأنه من أهم ما أخرجهم وهز أركانهم.

ولنتأمل ما في كلمة ﴿قَذَفَ﴾، والقذف هو شدة الرمي وقوته، يقول الراغب: (القذف: الرمي البعيد)(١)، واستعير هنا للحصول العاجل وقوة الإخراج؛ وهو تصوير بليغ فيه دلالة على أن الخوف كان شديداً، ومباغتاً، ومتغلغلاً في نفوسهم.

وفي كلمة ﴿ٱلرُّعْبَ﴾ ما ليس في كلمة الخوف، فالرعب شدة الخوف، وهو ما نصر به رسول الله ﷺ، وفي هذه الآية تصوير بليغ لما كانوا عليه من الخوف الشديد، والهلع الذي جعلهم في ارتباك واختلال عجيب جعلهم يخربون بيوتهم بأيديهم، والعاقل لا يخرب بيته بيده، ولكن كان هذا نتيجة شدة الخوف حتى قيل إنهم كانوا ينْزعون أبواب ونوافذ دورهم؛ ليترسوا بها أنفسهم وليسدوا بها أفواه الأزقة، وهذا حال اليهود في كل مكان وزمان يخربون البيوت قبل خروجهم من أي مكان والتاريخ يشهد بذلك فهم أهل خراب ودمار.

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف أيدي المؤمنين على أيديهم لأنهم بدؤوا بخراب بيوتهم؛ لئلا تبقى صالحة فما كان من المؤمنين إلا إزالة تحصنهم بها، فكأن تخريب المؤمنين صادر عنهم وهم الذين أوجبوه ودعوا له، وكأنه صادر عنهم؛ وبهذا الاعتبار عطفت أيدي المؤمنين على أيديهم، وجعلت آلة للتخريب مع أن الآلة هي أيديهم أنفسهم؛ فجمع بين الحقيقة والمجاز(٢).

وفي تخريب المؤمنين بيوت اليهود قوة ونكاية بهم، وهذه الحالة العجيبة

---

(١) المفردات: ص ٤٢٩.

(٢) انظر التحرير والتنوير: ج ٢٨ ص ٧٢.

تستدعي النظر والتأمل وأخذ العبرة. ولذلك ختمت ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَـٰرِ﴾، والاعتبار هو النظر في دلائل الأشياء وأسباها وعواقبها، ليتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد⁽¹⁾، وهذه الأحداث كلها تستدعي التأمل وتسبيح الله وتنزيهه عن كل نقص.

وتتابع الآيات لتبين فضل هذا الجلاء وسببه على بني النضير، فالله لا يأمر نبيه بالاعتداء وهذا هو العدل الإلهي: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾⁽²⁾ لهذا الجلاء فوائد عادت عليهم، فلولاه لعذبهم في الدنيا بأمور كالقتل والأسر والإهانة، و(لولا) حرف امتناع لوجود، تفيد امتناع جوابها لأجل وجود شرطها، والجلاء: هو الخروج من الوطن بنية عدم العود⁽³⁾.

وبعد أن ذكر عذاب الدنيا ذكر عذاب الآخرة ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾، وهي جملة معطوفة على ﴿لَعَذَّبَهُمۡ﴾.

ثم بين تعالى علة الإخراج وقذف الرعب وتخريب البيوت وعذاب الآخرة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ﴾، والصلة كلمة ﴿ذَٰلِكَ﴾ وسبب كل ما لقوه أنهم ﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ﴾، والمشاقة: المخالفة وكونك في شق غير شق صاحبك⁽⁴⁾. فاليهود خالفوا أمر الله ولم يؤمنوا بالرسولﷺ، وخالفوا أمر الرسولﷺ، ونقضوا العهد، وتعاهدوا مع المنافقين وأهل مكة.

---

(١) مفردات القرآن، ص ٣٢٠.

(٢)- سورة الحشر، آية (٤ — ٥).

(٣) تفسير ابن عاشور، ج٢٧، ص ٧٣.

(٤)- مفردات الراغب، ص ٢٦٤.

ثم جاءت جملة التذييل تبين جزاء من يشاقق الله ورسوله ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وعطف الرسول على لفظ الجلالة في الأولى لبيان عظم شأن الرسول ومكانته من الله، وفصل في الثانية لأن النداء مختص به تعالى، ففيه تخويف وتهديد.

ثم تنتقل السورة إلى الحديث عن غرض آخر وهو ما أجراه المسلمون من إتلاف أموال بني النضير، وحكم أموالهم، وتعيين مستحقيه من المسلمين، وقد جاءت الجملة مفصولة ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ عمد المسلمون إلى قطع بعض نخيل بني النضير لتخويفهم، وقيل قطعوا النخل ليوسعوا مكاناً لمعسكرهم؛ فغضبت اليهود واعتبروا ذلك إفساداً من النبي ﷺ والمسلمين، فأنزل الله هذه الآية، وجعل القطع والإبقاء بإذنه تعالى أي مرضياً عنده، وقد أطلق الإذن على الرضى، وأطلق إذن الله على إذن رسوله ﷺ.

وسميت النخلة ﴿لِّينَةٍ﴾ واللينة: هي النخلة الناعمة ذات الثمر الطيب⁽¹⁾، ثم بين حالها بأنها قائمة على أصولها، وفي هذا تصوير لحسنها وبهجتها؛ لأن الزرع القائم على أصوله يعني أنه زرع جيد لم يتسرب له الجفاف أو الآفة، وفيه إيحاء إلى أن ترك القطع كان أولى.

وختمت الآية بذكر العلة ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فالعلة في السماح هي إخزاء الفاسقين بأن يجعل كرائم أموالهم بأيدي المؤمنين، وهكذا يكون أمر الله فحين تنقلب الموازين ويعصى الله في الأرض فإن الله يحل لفئته المؤمنة ما حرمه؛ ليكون به إعلاء كلمة الله ونصرة دينه، وهذا يستدعي تنزيهه وتسبيحه تعالى.

---

(١) مفردات الراغب، ص ٤٥٧.

ثم عطفت جملتان على جملة ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ وهما ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ. مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(١)، عطف القصة على القصة لأنها متولدة عنها، وقد قطعت الجملتان قطعاً هو أشد من الوصل(٢)، إذاً الرابط بينهما جملة ﴿وَمَآ أَفَآءَ﴾، ﴿مَّآ أَفَآءَ﴾، هاتان الآيتان تتحدثان عن حكم أموال بني النضير وغيرهم ممن قاتلهم رسول الله ﷺ.

والفيء هو ما يأخذه المؤمنون من عدوهم بقتال أو بدون قتال، ونقل الراغب عن بعضهم أنه سمي بذلك تشبيهاً بالفيء الذي هو الظل، تنبيهاً على أن أشرف أعراض الدنيا يجري مجرى ظل زائل(٣)، وقد خصه الله لرسوله ﷺ لأن المسلمين لم يبذلوا مشقة في الإجلاء، ولم يقاتلوا، ولم يرجفوا بخيل ولا ركاب أي لم يغيروا بخيل ولا ركاب، وفي قوله ﴿ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ استدراك على النفي والمراد: ولكن الله سلط عليهم رسوله، والله يسلط رسله على من يشاء " فكان هذا حذفا دل عليه التذييل(٤).

وإذا كانت هذه الآية خصت الرسول ﷺ بالفيء فما بعدها جاءت لتبين

---

(١) سورة الحشر، آية (٦ – ٧).

(٢) انظر دلالات التراكيب للدكتور محمد أبو موسى ـــ باب الفصل والوصل.

(٣) مفردات القرآن، ص ٣٨٩.

(٤) التحرير والتنوير: ج ٢٨، ص ٧٩.

**نصيب الرسولﷺ والمؤمنين ممن لهم حق في الفيء** ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(١)، **ولم تعطف لأنها بيان للآية الأولى؛ فهي تبين حكم أفياء فتح قرى أخرى بعد غزوة بني النضير، فعينت الآية من له حق في الفيء؛ فكانت لخمسة مصارف الأولى** ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾، **والمراد أنها لرسول الله ﷺ، ولكن عطف الرسول على لفظ الجلالة للإشارة إلى أنه حق واجب لحق الله، وهكذا فإن العطف تجاوز فكرة التشريك، وأفرغ الكلمات من مضموناتها وفيوضاتها على غيرها، كقوله تعالى** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾(٢) **فليس المراد النهي عن أن يتقدموا بين يدي الله، ولكن المراد النهي عن أن يتقدموا بين يدي رسول الله ﷺ، وذكر لفظ الجلالة للإشارة إلى أن التقديم بين يدي الرسول ﷺ تقديم بين يدي الله تعالى، ومثله** ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾(٣) **وهذا باب جليل في درس الفصل والوصل**(٤).

**والباقي لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، ثم جاءت جملة الاعتراض تفصل بين مستحقي الزكاة في هذه الآية والآية التي بعدها** ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾(٥)، **وجملة الاعتراض أكدت وجوب الامتثال لأمر الله** ﴿وَمَآ

---

(١) سورة الحشر، آية (٧).

(٢)- سورة الحجرات، آية (١).

(٣)- سورة النمل، آية (١٨).

(٤) انظر: دلالات التراكيب، د. محمد أبو موسى، ص ٢٧٧.

(٥) سورة الحشر، آية (٨).

ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ كما أن فيها تغليظاً لمن خالف أمره فهو شديد العقاب.

ثم جاءت ثلاث آيات تتحدث عن المؤمنين المستحقين للفيء قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، فاستوعبت هذه الآيات كل المسلمين المهاجرين والأنصار والذين من بعدهم ممن جاء إلى الإسلام بعد المهاجرين والأنصار، فقيل هم التابعون بإحسان، وقيل إنهم المسلمون أبد الدهر.

ذكر الطبري في تفسيره: (أن عمرﷺ دعا المهاجرين والأنصارﷺ واستشارهم فيما فتح الله عليه وقال لهم: تثبتوا الأمر وتدبروه، ثم اغدوا علي، فلما غدو عليه قال: قد مررت بالآيات التي في سورة الحشر، وتلا ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ إلى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ قال: ما هي لهؤلاء فقط، وتلا قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ ثم قال: ما بقي أحد من أهل الإسلام إلا وقد دخل في هذا)(١).

بعدها بينت السورة أحوال المنافقين مع بني النضير، وتغريرهم بالوعود الكاذبة، فكشفت عن ضمائرهم ومخابئ قلوبهم كشفاً دقيقاً، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۞ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾(٢).

---

(١) انظر: تفسير جامع البيان، ج٢٨، ص ٣٧.

(٢) سورة الحشر، آية (١١).

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ استفهام حيث دخلت الهمزة عَلى نفي الرؤية المتيقنة فعداه بـ (إلى) وهي كثيرة في القرآن، وتأتي في مقامات متعددة، وقد جاءت هنا للتعجب من المكذبين وسلوكهم وأحوالهم مع اليهود، وكيف أنهم نقضوا عهدهم وتخلوا عنهم.

وتترابط الجملة ترابطاً عجيباً بالجملة الأساسية: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ثم يأتي القول ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ﴾، ثم يأتي الرد من الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾.

وقد وصف المنافقون بالذين نافقوا على غرار الذين كفروا، والمراد بالذين نافقوا عبد الله بن أبي وعبد الله بن تبتل ورفاعة بن زيد، كانوا من الأنصار ولكنهم نافقوا⁽١⁾، ووصفوا بالإخوة لأنهم كانوا مشتركين في الكفر بمحمد ﷺ، ولنتأمل عبارات المنافقين نجدها مزدحمة بالتوكيد:

فالجملة الأولى مؤكدة ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ﴾ مؤكدة باللام الموطئة للقسم، واللام والنون في ﴿لَنَخۡرُجَنَّ﴾، وجملة ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدًا﴾ معطوفة على ﴿لَئِنۡ اخۡرِجۡتُمۡ﴾ فهي من القول لا من المقسم عليه، ولذلك عريت من التوكيد، لأن بني النضير يعلمون أن المنافقين لا يطيعون الرسول ولا المسلمين، فهم ليسوا بحاجة إلى توكيد ذلك.

ثم جاءت الجملة بعدها مؤكدة ﴿وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ﴾ وهي معطوفة على﴿لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ﴾ ولما كان نصرهم متراجعاً في نفوسهم لم يؤكدوه باللام بل اكتفوا بالشرط.

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي، ج٢٩، ص ٢٨٩.

**ثم يأتي الرد القرآني مؤكداً بثلاثة مؤكدات ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾، ثم يتفرع من هذا الحكم المجمل جملاً مفصلة مؤكدة كذبهم بمؤكدات تجاري مؤكداتهم؛ وهذا من مجارا ة الخصم؛ وهذا الأسلوب يرد كثيراً في القرآن الكريم ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ﴾، ﴿وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ﴾، ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾، الجملة الأولى والثانية رد على مزاعمهم، والثالثة افتراضية أي لو كان منهم نصر لهربوا خوفاً؛ فالواو حالية ولم يكن من المنافقين نصر؛ ولذلك فإن معنى ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ﴾ أي لئن أرادوا نصرهم فإن أمثالهم لا يتوقع منه الثبات بل ينفروا ويهربوا(١)، لأنهم أهل جبن وخور ووهن.**

**ولذلك جاءت الآيات بعدها تبين خشيتهم وخوفهم من المؤمنين وذلك بأسلوب الخطاب ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ۞ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾(٢)، هذه الآيات كشفت حقيقتهم فهم يخافون المسلمين أكثر من خوفهم من الله، ثم إنهم جبناء غير قادرين على المواجهة في الحرب فهم متفرقو القلوب.**

**ثم ضرب لهم مثلاً بأهل بدر وبالشيطان ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۞ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ**

---

(١) انظر التحرير والتنوير: ج ٢٨، ص ١٠١.

(٢) سورة الحشر، آية (١٣ – ١٤).

ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ المراد هم أهل بدر من المشركين كادوا للإسلام، ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي سوء عاقبة تفرقهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ، وفي الآخرة لهم عذاب أليم، وقيل: إن المراد بمن قبلهم قريباً هم بنو النضير فإنهم أبوا الجلاء فحاربهم المسلمون في قريتهم إذ حصّنوها، وقبعوا فيها حتى أعياهم الحصار فاضطروا إلى الجلاء(٢).

ثم ضرب لهم مثلاً بالشيطان في خداعه وكذبه ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾، وقيل المراد بذلك إغواء الشيطان لقريش يوم بدر المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾(٣).

ثم ختمت السورة بنداء المؤمنين، وأمرهم بالتقوى شكراً له على ما فتح ومنح، وحذرهم من أن يكونوا كالمنافقين الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، وذكرهم بالآخرة والقرآن.

ثم ذكرت السورة طائفة من أسماء الله وعظيم صفاته المناسبة لغرض السورة، فهذه النعم التي أنعم بها على المؤمنين وذُكرت في السورة لا يقدر عليها إلا الله مالك هذا الكون الذي يتصف بهذه الصفات، فكان حرياً بالتسبيح، فختمت السورة بما بدأت به قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ

---

(١) سورة الحشر، آية (١٦ – ١٥).

(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي، ج٢٩، ص ٢٩١، وتفسير ابن عاشور، ج٢٨، ص ١٠٧.

(٣) سورة الأنفال، آية (٤٨).

إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

بدأت الآيات بذكر ضمير الشأن (هُو) وهو مبتدأ و(الله) اسم الجلالة مبتدأ ثانٍ ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر والجملة كلها خبر عن ضمير الشأن، وفي الجمع بين الضمير وبين اسم الجلالة يدل على أنه الجامع لصفات الكمال، وابتدأ بصفة الوحدانية ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأنها أهم ما أراده الله وهو تحقيق الألوهية والوحدانية، وكثير في القرآن تذكر صفة الوحدانية الوحدانية عقب اسم الجلالة كما في آية الكرسي وفاتحة آل عمران وفي هذه السورة.

ثم تثنى بصفة ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ لأن هذه الصفة تقتضيها صفة الألوهية، أي أنه يعلم الغائب والشاهد، وهذا يناسب ما ذكر في السورة من علمه بخفايا اليهود والمنافقين، ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ضمير متصل يفيد قصر الرحمة عليه تعالى، فهو رحيم بالفقراء والمساكين وغيرهم من أصحاب الحاجات الذين خصص لهم نصيباً من الفيء، و ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ اسمان للمبالغة من رحم، كغضبان من غضب وعليم من علم، والرحمة: رقة تقتضي التفضيل والإحسان، وكل ما أنعم الله به عليه يقال له رحمة، فالقرآن رحمة، والغيث رحمة، وقد يتسمى بالرحيم غير الله، ولا يتسمى بالرحمن سواه ولذلك قُدم، وهي صفة عامة لكل مخلوق، أما الرحيم فهي صفة خاصة بالمؤمنين(١)

ثم تتابعت الصفات فهو ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ الحاكم في الناس ولا ملك سواه، المتصرف بالأمر والنهي في المأمورين، كما أنه يستغنى بذاته عن كل موجود،

---

(١) انظر تفسير (الرحمن الرحيم) في تفسير الفخر الرازي: ج ١، ص ١٧٣.

ويحتاج إليه كل موجود، و﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ على وزن فعول من القدس وهي الطهارة من العيوب، وقيل إنه هو الذي كثرت بركاته(١)، ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ مصدر بمعنى المسالمة للمبالغة في الوصف، أي أنه سالم من كل عيب ونقص في ذاته وصفاته، ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ اسم فاعل من آمن فهو واهب الأمن لجميع الموجودات وسالم من الظلم والجور.

وفي ترتيب الصفات احتراساً فبعد أن وصف بـ ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ للدلالة على عموم ملكه، ثم أعقب بـ ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ للدلالة على العدل في معاملة الخلق، وهو ما يحتاجه كل ملك، ثم أعقبه بـ ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ أي الرقيب القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم، وفي تعقيب ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ بـ ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ دفع لتوهم أن تأمينه عن ضعف أو عن مخافة غيره، و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه أحد ولا يذله أحد، وتشتد الحاجة إليه، ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ القاهر الذي جبر خلقه على ما أراده، وكفاهم أسباب المعاش والرزق، كما أنه عالٍ فوق خلقه، ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ المتعالي عن صفات الخلق، ذو الكبرياء والعظمة.(٢)

والصفات الثلاث الأولى ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ﴾ تؤذن باهتمام الله بشؤون عباده وإصلاح أمرهم، أما الصفات ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ فهي تؤذن بقوته وهيمنته على عباده، فالأولى اهتمت بجانب الإطماع وهذه اهتمت بجانب التخويف، ثم ذيلت هذه الصفات بتنزيه الله باسم المصدر ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثم ختمت السورة بصفات أخرى ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

---

(١) تفسير الفخر، ج٣٠، ص ٢٩٤.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ج ٢٨، ص ١١٩.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ (هو) ضمير الشأن وقد تكرر أربع مرات فسره ما بعده من صفات، وهذا الضمير لا يأتي إلا في المعاني المهمة حيث تهيء النفوس لتلقيها، وله مواقع جليلة في القرآن الكريم، وهنا جاء ليهيء النفوس لتلقي هذه الصفات الخاصة بالله سبحانه وتعالى، وقصرها عليه تعالى في التعريف بعدها ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾.

﴿ٱلْخَٰلِقُ﴾: المخرج الأشياء من العدم إلى الوجود المقدر لها من غير مثال سابق، ﴿ٱلْبَارِئُ﴾: المقدر لما يوجده، ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾: الذي يخلق صور الخلق على ما يريد من أشكال مختلفة، وهذه الصفات في مجموعها يحصل بها تصور الإبداع الإلهي للإنسان، فابتدئ بالخلق الذي هو الإيجاد الأصلي، ثم بالبرء الذي هو تكوين جسم الإنسان، ثم بالتصور الذي هو إعطاء الصورة الحسنة(١).

فهذه الصفات الثلاث أشارت إلى تصرفه بالبشر على وجه يستدعي الشكر، لذلك عقبت بقوله ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وهكذا ختمت السورة بمثل ما بدئت به وهو ما يسمى رد الصدر على العجز، وقد جاء التسبيح هنا بالمضارع، وفي بداية السورة بالماضي للدلالة على أن تسبيحه كان في الماضي وهو الآن في الحال والاستقبال، فما في السورة حري بأن يجعل كل من في السموات والأرض يسبح لعظمته.

وقد عطفت السموات على الأرض هنا، وفصلت بـ(ما) في بداية السورة للإشارة إلى عموم هيمنته، وذلك لأنها ذكرت بعد صفات الله ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ فنظمت تحت هذه الصفات مخلوقات السموات والأرض فكانت خلقاً واحداً لخالق واحد، وكأنها نتيجة لمقدمات، وفي بداية

---

(١) المصدر السابق: ج٢٨، ص١٢٥.

السورة فرق ما بينهما للإشارة إلى أن هذه السورة تتحدث عمن خرج عن التسبيح من أهل الأرض.

وذكر هذه الصفات خاصة جاءت مناسبة لموضوعات السورة، فالسورة عامة تحدثت عن ثلاثة موضوعات: إخراج بني النضير، ونصرة المسلمين، وتوزيع الفيء، وكشف دواخل المنافقين.

كذلك جاءت هذه الصفات لتؤكد هذه الأقسام، فإخراج بني النضير الذين خرجوا على رسول الله ﷺ يناسبه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ.... ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾، ثم كشفه عن دواخل المنافقين فدلت عليها ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أما رحمته بالفقراء وإعطاؤهم الفيء ففي ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وأما نصرة المسلمين عليهم يناسبها ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾، وبقيت صفات يفيض الله بها على كلا الفريقين، وهي ﴿ٱلۡقُدُّوسُ﴾، ﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾، ﴿ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾، ثم ينضم الجميع تحت ملكه فله يسبح ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم.

- سورة الصف :

السورة الثالثة التي جاء التسبيح فيها بالماضي، وقد فصل بينها وبين سورة الحشر بسورة الممتحنة، كما فصل بين الحشر والحديد بسورة المجادلة، ولهذه السورة صلة بسورة الممتحنة حيث ذكر الله في الممتحنة الجهاد في سبيل الله فبسطه في هذه السورة، وهي سورة مدنية آياتها أربع عشرة آية.

وسبب نزولها عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله عز وجل دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به، فأخبر الله أن أحب الأعمال إيمان به وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق

**عليهم فأنزل الله هذه الآيات.** (١)

**وقد بنيت السورة على ثلاثة نداءات للمؤمنين كل نداء تحته موضوعات، قال تعالى:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾(٢)، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٣)، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾(٤).

**وتتوج هذه الآيات مطلع السورة الذي بدئ بالتسبيح قال تعالى:** ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ **جاء التسبيح بالماضي ليدل على أن كل ما في السموات والأرض مسبح لله، والتسبيح هنا جاء على غرار التسبيح في سورة الحشر؛ حيث عطفت الأرض على السموات بتكرار (ما) وكأن كل عالم من هذين العالمين يسبح وينزه على حده؛ وهو أبلغ في الكثرة والشمول.**

**ثم** ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ **والعزيز: أي العظيم النفع الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء، و الحكيم: الذي يضع الأشياء في أتقن مواضعها**(٥)**، ويكره المخالفة.**

**ثم جاء النداء الأول** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ **ومناسبة هذا العتاب للتسبيح، أن المؤمنين لما لم يوفوا بعهد الله في قتال الكافرين الذين لم يسبحوا الله، وجعلوا له شركاء، ناسب أن يذكرهم بأنهم**

---

(١) المصدر السابق: ج ٢٨، ص ١٧٢.

(٢) سورة الصف، آية (٢).

(٣) سورة الصف، آية (١٠).

(٤) سورة الصف، آية (١٤).

(٥) نظم الدرر: للبقاعي ج٢٠، ص٢٠.

لم يؤدوا حق تسبيح الله والوفاء بعهده، والحال أن كل من في السموات ومن في الأرض يسبح لله.

وفي ندائهم بالذين آمنوا تعريض بأن الإيمان من شأنه أن يمنع المؤمنين من المخالفة، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، ثم أردف الإنكار جملة تغليظ لمن خالف أمر الله فقال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾(١) ولم يقل مقت شديد، وقد أسند المقت وهو البغض الشديد إلى الكبر، وكأنه صار كبيراً يُرى رأي العين، وفي ذلك تهويله وتعظيمه في قلوب السامعين، ثم وصف المقت بأنه من عند الله، وفي ذلك تخويف بأنه لا تسامح فيه.

ثم لما ذكر ما يمقته تعالى ذكر ما يحبه فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾(٢) فبين لهم أحب الأعمال إليه، وهي أن يقاتلوا صفاً أي مصفوفين، وذلك دلالة وكناية عن الانتظام في القتال، ثم وضح معنى الانتظام بالتشبيه بالبنيان المرصوص أي المتلاصق بعضه مع بعض، وفي البنيان تماسك وتراص، وهكذا يريد الله من المؤمنين أن يكونوا قلباً واحداً حتى في القتال.

ثم انتقلت الآيات للحديث عن موسى مع قومه وعن عيسى مع قومه، ومعارضتهم لهما ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(٣)، معنى (إذ) ظرف منصوب بإضمار (اذكر)، أي اذكر لقومك هذه القصة للتذكير بالمشاهدات والأمور الواقعة لما فيها من

---

(١) سورة الصف، آية (٣).

(٢) سورة الصف، آية (٤).

(٣) سورة الصف، آية (٤).

الترهيب؛ فذكر ما كان عليه بنو إسرائيل لما تقاعسوا عما أمروا به من فتح بيت المقدس(١).

وجاء نداء موسى لقومه بقوله ﴿يَـٰقَوْمِ﴾ استعطافاً لهم وأنه منهم، وكان يجب عليهم طاعته لأنهم أعرف به وبصدقه، وفي ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ استفهام إنكاري وما بعده جملة حالية ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ وأكدت بـ (قد) وبالفعل المضارع الذي معناه أن علمهم بذلك أمر متجدد ويتجدد بنُزول الوحي والآيات عليه؛ وهذا المعنى لا يحصل لو كان الفعل ماضياً، ثم كانت النتيجة أن قلوبهم زاغت ومالت عن الحق؛ فكان الجزاء ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ جعل الله الزيغ في قلوبهم فلم ينفكوا عن الضلال، وجملة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ تذييل.

ثم بين حال هؤلاء العصاة حين جاءهم عيسى ﷺ، وبدئت الآيات على غرار الآية الأولى لأن النتيجة في النهاية واحدة، ذلك أن عيسى أرسل لتأييد شريعة موسى عليهما السلام والتذكير بها، وتغيير بعض أحكامها؛ وكأن خطاب عيسى ﷺ لهم كان في بداية دعوته قبل أن يتبعوه ويصدقوه؛ فناداهم بـ ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بالاسم الذي يحبونه، ثم بين لهم أن رسالته تصديق لما في التوراة، وفي ذكر ذلك التقرب من نفوسهم واستنزال طائرهم حتى يقبلوا دعوته، ثم أخبرهم أن نبياً سيبعث من بعده، وفي قوله ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى﴾ فجعلها بشارة؛ والتبشير الإخبار بما يسر من الأمور؛ ذلك لأن بني إسرائيل لم يزالوا ينتظرون مجيء رسول من الله يخلصهم من الجور الذي كانوا يرزؤون تحته، ثم إنه جاءهم ﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ بالمعجزات، ومع كل هذا كذبوه وقالوا ﴿هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

---

(١) نظم الدرر: ج ٢٨، ص ١٠.

**وقد جاءت الآية الثانية على غرار الأولى ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ لأن الآيتين مشتركتان في أن الحاصل من الدعوتين واحد وهو التكذيب.**

**ثم بين تعالى موقف أهل الكتاب والمشركين من دعوة الرسول الذي بشر به عيسى عليه السلام: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فالمراد من هذا الاستفهام هم الذين كذبوا النبي ﷺ، ولذلك عطف هذا الكلام بالواو، والاستفهام أفاد الإنكار والنفي، وأنه لا أحد أظلم منهم.**

**ثم بين تعالى ما أرادوه لهذا الدين من زوال، وشبه حالهم بمن يريد إطفاء النور المشع، ودين الله نور ينير القلوب والعقول، وفي تسمية الإسلام نور تشريف وتعظيم له؛ وهذا من الاستعارة المكنية حيث شبه الإسلام بالمصباح الذي ينير، وما يفعله المشركون من وصف الدين والقرآن بأنه سحر عبر عنه بـ ﴿لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، ويرد الله عليهم ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ سواءً كانوا مشركين أو أهل كتاب أو غيرهم.**

**ثم جاءت آية ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾(١) وفيها زيادة تحدي للمشركين ومن شايعهم من أهل الكتاب، وإخبار بأنه سيظهر هذا الدين ولو كره المشركون.**

**ثم يأتي النداء الثاني من السورة** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً

---

(١) سورة الصف، آية (٩).

فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۞ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٌ قَرِيبٌۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(١).

**بعد عتاب الله للمؤمنين لعدم مطابقة أفعالهم أقوالهم، وبعد ضرب الأمثال لهم انتقل الكلام من مجال إلى مجال، خوطبوا مرة ثانية بندائهم بسمتهم** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، **ثم جاء الاستفهام لتشويقهم لمعرفة أحب الأعمال إلى الله والتي سأل عنها المؤمنون ثم تقاعسوا، فقال تعالى:** ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ **فالاستفهام للتشويق، وفي قوله:** ﴿أَدُلُّكُمۡ﴾ **إشارة إلى أن ما بعده أمر لا يُهتدى إليه بيسر، ثم سمى هذا الأمر تجارة على طريق الاستعارة للدلالة على أنه عمل رابح، ثم زاد التشويق بذكر صفة هذه التجارة** ﴿تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ **وهي تجريد للاستعارة لأنها من مناسبات المعنى الحقيقي للعمل الصالح.**

**ثم لما تشوقت النفس لمعرفة هذه التجارة التي لها هذه الصفات جاء الاستئناف بجملة** ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾ **فالتجارة تنحصر في أمرين: إيمان بالله، وجهاد في سبيله، ولكلٍ قيوده؛ فالإيمان بالله واليوم الآخر، والجهاد بالمال والنفس، وجيء بالمضارع للحث على تجدده ودوامه في كل وقت.**

**وبعد هذا الطلب يأتي الوعد والجزاء من الله** ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ...﴾**وقد جيء بالفعل** ﴿يَغۡفِرۡ ..... يُدۡخِلۡكُمۡ﴾ **بالجزم، والجزم لا يكون إلا في جواب الطلب وذلك للدلالة على أن معنى**﴿تُؤۡمِنُونَ وَتُجَٰهِدُونَ﴾ **آمنوا وجاهدوا؛ فجاء الأمر بلفظ الخبر**

---

(١) سورة الصف، آية (١٠ – ١٣).

للإيذان بوجوب الامتثال، وهذه من النكات البلاغية الخفية في هذه الآية⁽¹⁾.

ثم عطفت ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ﴾ على جملتي الجزاء ﴿يَغْفِرْ.. يُدْخِلْكُمْ﴾ عطف الجملة الاسمية على الفعلية، قيل إن المراد بهذه الأخرى التي تحبونها هي فتح مكة؛ فهي بشرى وإخبار للغيب لإدخال المسرة والفرح على قلوب المؤمنين.

ثم يأتي النداء الثالث للمؤمنين وهو أمر بنصرة نبيه محمد ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾⁽²⁾.

وتعني نصرة الله نصرة دينه ونبيه لذلك جاء التشبيه بدعوة عيسى عليه السلام للحواريين واستجابتهم له على سبيل التشبيه التمثيلي؛ أي كونوا عندما يدعوكم محمد ﷺ إلى نصر الدين كحال قوم عيسى بن مريم عليه السلام للحواريين واستجابتهم له، والقصد من التشبيه الحث على التأسي بالمؤمنين السابقين، وإذا كان الشاذ من الناس كذب عيسى عليه السلام، فقد نصره الحواريون فأيدهم الله وأظهر دينهم؛ فالدين يُنصر بالفئة القليلة المخلصة.

وهكذا تنتهي السورة بعد أن دارت على أمور تقتضي تسبيحه ودفع النقص عنه تعالى؛ فهو يحب اتحاد المؤمنين في قتال الأعداء، وهو مظهر دينه ولو كره المشركون والكافرون، وهو ناصر دينه بنصرة أوليائه ومبشراً المؤمنين الممتثلين لأوامره حتى يحصل الكمال في نشر الإسلام، وهذا كله يقتضي تنزيهه

---

(١) انظر: تفسير ابن عاشور، ج ٨، ص ١٩٤ – ١٩٥.

(٢) سورة الصف، آية (١٤).

**عن كل نقصان.**

- **ثالثاً: التسبيح بالفعل المضارع:**

**رأينا أن سور التسبيح بالماضي جاءت متقاربة في جزء واحد يفصل بين كل سورة وأخرى سورة، فبين الحديد والحشر سورة المجادلة، وبين الحشر والصف سورة الممتحنة، ثم بعد الصف جاءت سور التسبيح بالمضارع في سورتي الجمعة والتغابن، يفصل بينهما سورة المنافقين، وفي مجيء التسبيح بهاتين الصيغتين دلالة على أن هذا التنزيه دائم ومستمر في كل وقت.**

**يعلل ذلك الفخر الرازي فيقول: (قال في أول تلك السور ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾(١) بلفظ الماضي وذلك لا يدل على التسبيح في المستقبل، فقال في أول هذه السورة _ أي: سورة الجمعة – بلفظ المستقبل ليدل على أن التسبيح في زمان الحاضر والمستقبل)(٢).**

- **سورة الجمعة:**

**نزلت هذه السورة بعد فتح خيبر سنة ست (٦) للهجرة، وهي إحدى عشرة آية، وتدور حول الأمر بالاجتماع وعدم التفرق خاصة يوم الجمعة لأي غرض من الأغراض، جاءت بعد الصف في الترتيب القرآني والتي كانت تدور حول توحيد المسلمين في الجهاد وتوحيدهم على رسول الله ﷺ فكأن سورة الجمعة جاءت مؤكدة لها ولذلك لم يفصل بينهما فاصل، وكما أن سورة الصف تتحدث عن حال موسى عليه السلام مع قومه، فسورة الجمعة تتحدث عن حال الرسول ﷺ مع أمته.**

**بدأت السورة بالتسبيح بالمضارع، ثم تحدثت عن أغراض:**

---

(١) سورة الحديد، آية (١).

(٢) تفسير الفخرالرازي: ج ٣، ص ٢.

الأول: التنويه بنعمة إرسال الرسول محمد ﷺ، وأنه رسول للعرب ولمن يلحق بهم، وأن رسالته فضل من الله.

الثاني: ذم اليهود الذين أرسلت إليهم التوراة فأعرضوا عنها، وخاطبهم بـ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ ا﴾(١).

الثالث: نداء المؤمنين الذين انصرفوا عن صلاة الجمعة وتوبيخهم.

صلة أول السورة بآخر ما قبلها: لما ختم الله سورة الصف بأن بعض بني إسرائيل نصروه، وبعضهم خذلوه، دل ذلك على تمام القدرة المستلزمة لتمام العلم فجاء التتريه هنا بالمضارع على هذا الكمال، وأنه كما كان في الماضي في أول سورة الصف فإنه سيكون في المستقبل استمراراً ودواماً لملكه تعالى كما ورد في أول هذه السورة(٢).

أما صيغة جملة التسبيح فهي تختلف عن سابقتها.قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ فزيدت صفتين لله تعالى ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾ فما دلالتهما؟ إن هاتين الصفتين وردتا متتاليتين في أواخر سورة الحشر كما رأينا سابقاً.

و﴿ٱلْمَلِكِ﴾ هو الحاكم في الناس ولا ملك للإطلاق إلا لله تعالى؛ لأن له مطلق التصرف، و﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ بضم القاف على الأفصح، وقد تفتح على وزن فُعُول من الصفة وهو قليل كما نقله ابن عاشور عن ابن جني(٣).

والقدوس: هو المطهر من النقائص الذي يستدعي التسبيح والتتريه، وقد أعقب الملك بالقدوس للإشارة إلى أنه متره من نقائص الملوك؛ وهذه الصفة لم

---

(١) سورة الجمعة، آية (٦).

(٢) التحرير والتنوير: ج٢٧، ص ١٢٠.

(٣) المصدر السابق: ج٢٧، ص ١٢٠.

ترد في القرآن إلا في هذه السورة، وسورة الحشر، كما أنه لم ترد صفتا الملك والقدوس متتاليتين إلا في هاتين السورتين، و﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ الذي يوقع كل ما أراده في أحكم مواقعه وأتمها وأتقنها؛ وهذه الصفات ذكرت في سورة الحشر.

ثم يثني الله على أمة محمد ﷺ استجابتهم لرسالته، كما أثنى في أواخر سورة الصف على الحواريين لاتباعهم عيسى؛ قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

هذه الجملة استئنافٌ بياني ناشئ عن إجراء الصفات السابقة وكأنها مهدت لهذا المعنى، ﴿ٱلَّذِى هُوَ بَعَثَ﴾ تعريف الطرفين بالصلة دال على اختصاصه بهذا الأمر، وأنه هو وحده الذي يرسل الرسل، بل وأنه هو الذي أرسل هذا النبي ﷺ.

وفي مجيء الصلة دلالة على أن هذا الإرسال مما كان يشغل الناس فهل هو من عند الله حقاً، أو أنه كاذب، فجاءت الآية تدل على أنه هو الذي اختص بإرسال هذا النبي محمد ﷺ، وقد جاءت الصفات لتمهد للإخبار بهذا الأمر العظيم.

ثم قال: ﴿بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ والمراد بهم العرب، وسموا بالأميين لأنهم لا يقرؤون ولا يكتبون، نسبة إلى الخلقة الأولى حين الخروج من بطن الأم، ثم هو ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ أي لم يكن غريباً عنهم بل كان منهم، وكونه منهم دال على أنهم كانوا يعرفونه حق المعرفة، ويعرفون أخلاقه وشمائله، وهذا يستدعي إيمانهم به.

ثم وصف الرسول الأمي بأنه يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وابتدئ بالتلاوة لأن أول تبليغ الدعوة يكون بإبلاغ ما نزل

به الوحي، وثنى بالتزكية لأن ابتداء الدعوة بالتطهير من الرجس المعنوي وهو الشرك، ثم أعقبه بذكر تعليمهم الكتاب والحكمة لأن أحكام الكتاب تبين لهم بعد إيمانهم وتخلصهم من الشرك.

وقد تكرر هذا المعنى بهذا الترتيب في سورة آل عمران.قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾(١)، ثم قال تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٢) الجملة مفعول به والواو للمعية؛ أي يتلو على الأميين مع آخرين وهذا يصدق على أمم كثيرة غير العرب؛ لأن جملة ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ حال؛ فهي تشير إلى أن أمماً كثيرة ستدخل الإسلام وتصير مثل العرب في فهم الدين(٣)، وفي هذا دلالة قدرته تعالى التي لا تحد.ولذلك قال ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وتتصل هذه الآية بالآية الأولى آية التسبيح التي جاءت في المستقبل وختمت بالعزيز الحكيم، في أن من دلالة قدرته إيمان من يأتي مستقبلاً وذلك حري بأن يُسبح الله الآن وفي المستقبل.

ثم ختمت الآيات ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾(٤) أي ذلك العطاء لهؤلاء الأميين فضل من الله يؤتيه من يشاء بحوله وقوته.

ولهذه الصفات التي وصف الله بها المؤمنين صلة بصفاته تعالى المذكورة في

---

(١) سورة آل عمران، آية (١٦٤).

(٢) سورة الجمعة، آية (٣).

(٣) انظر: نظم الدرر، ج٢، ص٥٣.

(٤) سورة الجمعة، آية (٤).

أول السورة، فصفة الملك تعلقت بأن الله يدبر أمر عباده بإرسال رسله، والقدوس التي معناها التطهير تعلقت بتطهير وتزكية نفوس المؤمنين، وصفة العزيز اقتضت أن يلحق الأميين من عباده بمراتب أهل العلم، ويخرجهم من ذلة الضلال إلى عزة العلم، والحكيم اقتضت أن يعلمهم الحكمة والشريعة.

ويتوسط السورة الغرض الثاني وهو ذكر أحوال عصاة اليهود.قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾(١).

فبعد أن بين تعالى أنه آتى فضله للقوم الأميين أعقبه بذكر أفضاله على اليهود الذين لم ينتفعوا بهذا الفضل، وقد بدأت الآيات بالتمثيل، أو التشبيه التمثيلي، والتشبيه من الأساليب التي تأتي للتعبير عن معاني لم تكن اللغة المجردة قادرة على الوفاء بها، فتأتي في صورة تفيض بكثير من المعاني لا تحملها اللغة في حقيقتها.

وقد أراد الله تعالى في هذه الآية أن يبين لنا كيف أن اليهود كلفوا بحمل التوراة حملاً معنوياً، لكنهم لم يعملوا به ولم يحفظوه، فشبه حالهم بالحمار الذي هو مثل في الغباء والبلادة ليس ذلك فقط بل حمار يحمل أسفاراً، والسِفر يطلق على الكتاب القيم الذي فيه ما فيه من العلم والحكمة.

ولك أن تتصور حماراً يحمل فوق ظهره أسفاراً قيمة حيث لا تناسب بين الحامل والمحمول، كما نلاحظ التناسب اللفظي بين حمار وأسفار، وفي هذه الصورة إظهار لجهلهم وبلادتهم، وذلهم وحقارتهم، وهكذا شبه المعنى المجازي بالمعنى الحقيقي الحسي، وفي هذه الصورة ترهيب للمؤمنين من إهمال العمل

---

(١) سورة الجمعة، آية (٥).

بكتابه وتعاليم دينه، فاليهود كانوا يفتخرون بأن لهم كتاباً، ولهم أسفار التوراة، لكنهم لم يعملوا بها بل إنهم خلطوه بأخطاء وضلالات متبعين هوى أنفسهم، كاتمين ما في كتبهم من العهد باتباع النبي الذي يأتي، وهكذا جاءت هذه الآيات مرتبطة بما ذكره الله عنهم في سورة الصف، وكأنها تتمة لها.

ثم أعقب هذا التمثيل بإبطال أقوالهم ومفاخرهم المزعومة من أنهم أولياء الله ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ. وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾(١) والله تعالى هنا لا يناديهم كما ينادي المؤمنين، إنما يأمر الرسول ﷺ بأن يرد على أقوالهم ترفعاً من مخاطبتهم لزيغهم وضلالهم، يأمر الرسول ﷺ أن يرد على قولهم بأنهم أولياء الله وأحباؤه، وأنهم أفضل خلق الله، والله يرد عليهم في غير هذه السورة بقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ﴾(٢)

وقد طلب منهم في آيات سورة الجمعة تمني الموت؛ لأن الولي لا يكره الموت ولا يخافه؛ لمعرفته بمكانته عند الله، وهذا الأمر جاء تعجيزاً لهم وكبتاً لأقوالهم، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾(٣) جملة اعتراضية بين جملتي التوكيد قصد بها تحديهم لإقامة الحجة عليهم في أنهم ليسوا أولياء الله.

ثم يأتي القول الأخير رداً على ما اقتضاه التذييل من الوعيد، فجاءت بدلاً

---

(١) سورة الجمعة، آية (٦ – ٧).

(٢) سورة المائدة، آية (١٨).

(٣) سورة الجمعة، آية (٧).

من جملة ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وفيها أعيدت كلمة ﴿قُلْ﴾ لأنها بدل من الجملة التي ذكرها، فأعيد ذكر العامل، وصلتها بأول السورة: أن الله تعالى لما ذكر أن كل من في السموات والأرض خاضع ومسبح له بيّن الفئة الخارجة عن العادة وهم اليهود.

ثم يأتي الغرض الأخير من السورة وهو الحديث عن الجمعة حيث أن ما قبلها كان تمهيداً لها، فقد بدأت السورة بذكر نعمة الرسول ﷺ، وختمت بذكر نعمة يوم الجمعة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١) قيل: إن مناسبة الآيات أن دحية الكلبي ﷺ قدم المدينة بعير تحمل الميرة، وكان قد أصاب الناس جوع وجَهد ؛ فدخل وكان في عرفهم أن يدخل في مثل ذلك بالطبل والمعازف والصياح، وكان رسول الله ﷺ يخطب على المنبر، فقام بعض الصحابة إليها مخافة أن يُسبقوا إليها، فما بقي مع الرسول ﷺ إلا ثمانية، فكره ذلك الرسول ﷺ فنزلت هذه الآيات التي ترشد المؤمنين بما يفعلونه يوم الجمعة(٢).

ولنتأمل كيف بنيت هذه الآية، وكيف ترابطت فأدت معناها، وبناء الآية قام على الآتي: النداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، جملة الشرط: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾، الجواب: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، جملة شرطية ثانية معطوفة على الأولى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾، جواب الشرط ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾،

---

(١) سورة الجمعة، آية (٩).

(٢) تفسير أبي السعود، ج٨، ص٢٥٠.

معطوف عليها ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

فالبناء الأساسي للآية: ﴿إِذَا نُودِىَ﴾ و ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ﴾ فأرشدهم إلى فضلين بعد سماع النداء، وإلى ثلاثة بعد انقضاء الصلاة.

ثم ختمت السورة بعتاب وتوبيخ لترك المؤمنين ما أمروا به ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾(١) والأسلوب جاء على طريقة الالتفات من مخاطبة المؤمنين الذين فعلوا ذلك إلى مخاطبة الرسول ﷺ إعراضاً عنهم لفعلتهم؛ فحري بأن يصرف الخطاب عنهم، ويؤمر نبيهم ﷺ بأن يعظهم وهكذا يتناسب التسبيح في أول السورة بموضوعاها؛ فعلى اليهود والمؤمنين أن يلتزموا بأمر الله ويطيعوه، لأن الحال أن كل من في السموات والأرض يسبح له تسبيحاً دائماً مستمراً.

وقد ذكر ابن عاشور سراً آخر لمجيء التسبيح بالمضارع.قال: (جاء فيها فعل التسبيح مضارعاً وجيء به في سواها ماضياً لمناسبة فيها وهي أن الغرض منها التنويه بصلاة الجمعة، والتنديد على نفر قطعوا عن صلاقم وخرجوا لتجارة أو لهو، فمناسب أن يحكي تسبيح أهل السموات والأرض بما فيه دلالة على استمرار تسبيحهم وتجدده تعريضاً بالذين لم يتموا صلاة الجمعة)(٢).

## بين سورة الصف وسورة الجمعة:

تظهر المناسبة واضحة بين السورتين حيث:

افتتحت الأولى بالتسبيح بالماضي والثانية بالمضارع دلالة على الاستمرار، وأنه ما زال منذ الأزل تنْزيه الله.

---

(١) سورة الجمعة، آية (١١).

(٢) تفسير ابن عاشور، ج٢٨، ٢٠٦.

ختمت الصف بذكر الجهاد وتجارة الآخرة، وختمت الجمعة بذكر تجارة الدنيا، كما بدئت التجارتان بنداء المؤمنين.

ذكرت الصف صفوف المؤمنين في القتال، وفي الجمعة ذكرت صلاة الجمعة التي تلزم بالصف.

في الصف ذكرت اليهود وأذاهم لموسى ، وفي الجمعة ذكرت حال الرسول ﷺ مع أمته.

في الصف ذكر عصيان بني إسرائيل، وكذلك في الجمعة.

ذكرت الصف بشارة عيسى للرسول ﷺ، وفي الجمعة فصل ذلك ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾(١).

- سورة التغابن:

سورة التغابن هي السورة الثانية التي بدئت بتسبيح المضارع، يفصل بينها وبين سورة الجمعة سورة المنافقين؛ وهي سورة مدنية، وختمت سورة المنافقين بإثبات قهره تعالى وإحاطة علمه، وافتتحت سورة التغابن بإحاطة حمده وتنزيهه، وقيل إن سورة المنافقين تحدثت عن المنافقين وهذه تحدثت عن الكفار، كما أن سورة الجمعة تحدثت عن المؤمنين، وتتشابه كثيراً في نظمها وموضوعاتها بسورة الحديد.

تحدثت السورة عن أغراض عدة؛ بدئت بالتسبيح وذكرت صفات الله تعالى، ثم وبخ الكفار على الشرك وإنكارهم البعث ورُدّ عليهم، ثم أمرت بالإيمان بالله والرسول ﷺ، وذكرت ما سيكون يوم التغابن من أحوال المؤمنين وجزاء الكافرين، وسُلِّي المؤمنون فيما يصيبهم من مصائب، ثم نادى المؤمنين

---

(١) سورة الجمعة، آية (٢).

وحذرهم من فتنة الأزواج والأولاد والأموال، ثم أمرهم بالتقوى وحثهم على الإنفاق، ثم ختمت السورة بذكر صفات الله سبحانه وتعالى.

بدئت السورة بقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ عطفت ما في السموات على ما في الأرض بإعادة (ما)، وهذا يعني أن (ما) الأولى خاصة بالسموات، والثانية خاصة بالأرض؛ فهذا عالم وهذا عالم.

وبما أن السورة تخاطب من في الأرض فقد أفرد تسبيحهم ليبين لهم شمول من هو خاضع له؛ فلا يشذ من هذا التسبيح أحد فـ(ما) تعني الشمول خاصة أن ما يسبقها هو الحديث عن المنافقين، ثم أن السورة أيضاً خاطبت الكفار فكان من المناسب أن يذكر خضوع من في الأرض، ثم يعطف عليه من في السماء، وجيء (بما) دون (من) التي تعني أن التسبيح صادر من كل حي وجماد؛ فما من شيء إلا يسبح بحمده، وفي ذلك تكبيت للمعاندين عن الإيمان به.

ثم لما نُزه تعالى عن كل نقص بالتسبيح وصف بالكمال ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ﴾ وقد جاءت تعليلاً للتسبيح؛ لأن التسبيح من جميع المخلوقات تعني أنه يهيمن عليها وملك لها، كما أن ملكيته تقتضي بأن يكون له الحمد، والحمد يلي التسبيح، كما أن التسبيح من الحمد؛ لأن معنى الحمد كما يقول الراغب: (الثناء عليه بالفضيلة وهو أخص من المدح، وأعم من الشكر)⁽¹⁾ والتسبيح مدح وحمد لأنه إبعاد له من النقائص؛ وهذا مدح بالكمال.

وفي تقديم المسند على المسند إليه ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ﴾ تخصيص الملك والحمد لله، وهذا قصر ادعائي لعدم الاعتداد بملك غير ملكه، وحمد غير حمده.

---

(١) مفردات القرآن، ص١٣١.

ثم تأتي جملة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ معطوفة على الجملتين السابقتين وتذييلاللآية وبياناً لجملتي ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾؛ لأن هذا يقتضي أن يكون على كل شيء قدير، وفي تقديم الجار والمجرور الخبر على المبتدأ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ توكيد واختصاص، وجيء بصفة القدير للإشارة إلى أن هذه المخلوقات التي تسبح الله لها صفة القدرة، وأن خالقها أقدر منها فهو القدير، وتأمل التوكيدات التي جاء بها التقديم في هذه الآية فقدم ﴿لِلَّهِ﴾ في ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾، و﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾، و﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وكلها أكدت المعنى.

ثم جاءت الآية الثانية بياناً لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾⁽¹⁾ فمن قدرته أن خلق الخلق ثم منهم كافر ومنهم مؤمن، وقدم الكافر لأنه الأهم في هذا المقام، فهو المنكر وهو المعاند والمنكر، وهو الذي بدئ بخطابه في هذه السورة، و(الفاء) في ﴿فَمِنكُمْ﴾ (فاء) تفريعية عاطفة على جملة ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ وبعد أن أثبت قدرته على الخلق أثبت علمه بما يعملونه، فقال ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وصلتها بما قبلها أن هذه الآية بينت أن تقسيم الناس من عند الله فهو عليم وبصير بهم، وليس مغلوباً على وقوعه، ولكن حكمته وعلمه اقتضيا ذلك، وقد يتقدم البصير على العلم كما في سورة الحجرات ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾⁽²⁾ لتأكيد علمه بما يفعل الناس، وأنه لا يخفى عنه شيء، وجاءت (ما) في ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ التي تفيد الإبهام للدلالة على علمه بما هو خفي

---

(1) سورة التغابن، آية (٢).

(2) سورة الحجرات، آية (١٨).

ومبهم من أعمالكم.

ثم انتقل من بيان قدرته على خلق الإنسان لبيان قدرته على خلق السموات والأرض مما هو أكبر قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾(١) وفي تقييد خلق السموات والأرض بالحق، والحق ضد الباطل والعبث: دلالة على إتقانه تعالى؛ ولذلك أردفه بذكر إتقانه في تصوير خلق الإنسان فقال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾، فالله خلق الإنسان على أحسن صورة، والآية تبين أنه تعالى صورهم ليس ذلك فقط بل أحسن صورهم، ويلاحظ أن هذه (الفاء) دلالة على العطف والتعقيب فكان التصوير في أول أمره حسناً، والإنسان أجمل المخلوقات خلقاً من حسن وجه، وجمال جوارح، وانتصاب قامة.

وختمت الآية بقوله ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ للتذكير بأن بعد الخلق هو الموت والفناء ثم الرجوع إلى الله.

ثم بعد أن بين الله قدرته في خلق السموات والأرض والإنسان بيّن علمه بما في السموات والأرض، وعلمه بما يسره ويعلنه الإنسان. قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(٢)، وقد تكررت (ما) في العطف في أول السورة ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لكنها تركت في ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ثم كررت في ﴿مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ﴾ فما فائدة التكرار والحذف ؟ نقول في تكرارها في ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لاختلاف تسبيح ما في السموات كثرة وقلة عن تسبيح ما في

---

(١) سورة التغابن، آية (٣).

(٢) سورة التغابن، آية (٤).

الأرض، ولم يكن الأمر في قوله ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأن علمه نظم نظماً واحداً وعلى حد سواء، فعلمه بما تحت الأرض كعلمه بما فوقها، أما ما يسرون فإنه مخالف لما يعلنون غاية المخالفة، ولذلك أعيدت (ما)[1].

ثم ذيلت ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تأكيداً لعلمه بما تسرون وما تعلنون، وعلمه بذات الصدور أي بما في القلوب يعني علمه بما هو أخفى وأدق، كما يعني علمه بما عظم وجلّ، ولما كان موضوع السورة التي قبلها أحوال المنافقين، وهذه السورة تتحدث عن أحوال الكافرين ناسب ذكر هذه الصفة.

وبعد ذكر هذه الصفات الدالة على قدرته وعلمه بدقائق الأمور تحدثت السورة عن الكفار وإنكارهم للنبوة والبعث. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[2] الكلام جاء استئنافاً يبين جزاء من كذب الرسل من سابقي الأمم على سبيل العبرة والعظة، خطاباً لكفار مكة بأسلوب الاستفهام الداخل على النفي مفيداً للتقرير والتوكيد، والمراد هم الأقوام السابقة التي أنزل الله عليها العذاب لتكذيبهم الرسل كقوم نوح وعاد وثمود بدلالة ذاقوا ﴿وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة، وفي [illegible] النبأ) الذي معناه الخبر العظيم ذو الشأن، دلالة عظمة هذا الأمر، وفي قوله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ﴾ (أن) مع ضمير الشأن بيان لفظاعة عملهم وشناعته.

---

[1] [illegible]: درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، ص٤٨٨.

[2] سورة التغابن، آية (٥– ٦).

ثم حكت الآية أقوالهم زيادة في تهويل عملهم ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ فالاستفهام إنكاري، وجاءت ﴿يَهْدُونَنَا﴾ بالجمع دلالة على اتفاقهم في هذه الحجة، وفي تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي تقوية حكم الإنكار.

وبعد أن حكى الله إنكار المكذبين للرسل حكى إنكارهم للبعث ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾(١)، الزعم: هو حكاية قولٍ يكون مظنة الكذب، وقد نفى الكفار البعث بـ ﴿لَّن﴾ التي هي لتأبيد النفي؛ ولذلك جاء رد القرآن مؤكداً بمؤكدات كثيرة إبطالاً لأقوالهم ﴿بَلَىٰ﴾ التي هي حرف إبطال، والقسم واللام ونون التوكيد في ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ و(ثم) التي تعني التراخي الرتبي، واللام والنون في ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾.

وبعد حكاية كفرهم على ألسنتهم جاء الأمر الإلهي ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فأمر بالإيمان بالله والإيمان بالقرآن أي الرسول وما أنزل عليه، وقد سمى القرآن نوراً على سبيل الاستعارة؛ وهذا كثير في القرآن؛ فالإسلام والقرآن والرسول ﷺ نور يدل على الطريق القويم. وفي الانتقال من أسلوب الغيبة إلى التكلم إشارة إلى زيادة الترغيب في اتباع القرآن وأنه صدق من عند الله.

ثم جاء التذييل ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، والخبير: العليم بغير المحسوسات(٢)، وهي تناسب علمه بإيمان القلوب، وقال من قبل ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ والبصير: العالم بالمشاهدات والمحسوسات(٣).

---

(١) سورة التغابن، آية (٧).

(٢) مفردات الراغب، ص ٢١٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير: ج٢٨، ص٢٦٣- ٢٧٢.

ويظهر اسم الجلالة في كثير من تذييلات آيات السورة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾⁽¹⁾، و﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾⁽²⁾، ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾⁽³⁾، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾⁽⁴⁾، ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾⁽⁵⁾، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾⁽⁶⁾، ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾⁽⁷⁾، وفي إظهار هذه الكلمة دلالة القدرة الإلهية، ولتجري هذه الجمل مجرى المثل والكلم الجوامع، كما أن فيها تعظيم الله في القلوب؛ وهذا كله من باب تنزيهه تعالى عن كل نقص وإثبات الكمال له في كل هذه الصفات، وهكذا ترتبط أواخر كل آية بأولها.

ثم يذكر الله الكفرة المتكبرين بيوم القيامة ليرتدعوا ويخافوا ويقبلوا على الحق قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾⁽⁸⁾ هذه الآية تتمة لآية إنكار البعث؛ ففيها إخبار بما سيكون بعد البعث، ويوم الجمع يوم القيامة فسره ما بعده ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ والتغابن اسم من أسماء يوم القيامة لم يرد في القرآن إلا مرة واحدة في هذا الموضع من سورة التغابن.

ومعنى الغبن في اللغة: يدور حول الخفاء، ومنه يسمى به من بخس صاحبه

---

(١) سورة التغابن، آية (٤).

(٢) سورة التغابن، آية (٦).

(٣) سورة التغابن، آية (٧).

(٤) سورة التغابن، آية (١٣).

(٥) سورة التغابن، آية (١٥).

(٦) سورة التغابن، آية (١٤).

(٧) سورة التغابن، آية (١٧).

(٨) سورة التغابن، آية (٩).

في معاملة بضرب من الخفاء من مال أو رأي، أو أن يعطى البائع ثمناً لمبيعه دون حق قيمته التي يعرض بها مثله، ويوم القيامة سميت بالتغابن لأن الأشياء تبدو بخلاف مقاديرها في الدنيا(١)، أو لأن في ذلك اليوم يطلّع عليه كل أحد من أهل ذلك الجمع فإذا فُضح أحد افتضح عند الكل، فيغبن كل كافر بتركه الإيمان ويغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان.

وحمل بعض المفسرين على أن صيغة (تغابن) تدل على التفاعل فأهل الجنة غلبوا أهل النار، إذ أن أهل الجنة أخذوا الجنة وأهل جهنم أخذوا جهنم(٢).

ومع كل هذه المعاني فالكلمة تعبر عن سوء الحال في ذلك اليوم، وعن الشدة، وفي اسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى هول ذلك المشار إليه، وفي تعريف الطرفين قصر الصفة على الموصوف أي أن اليوم الحق هو ذلك اليوم لا غيره من الأيام.

ثم ينقسم الناس يوم التغابن إلى قسمين مؤمن وكافر ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ. وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٣) جملة المؤمنين مبنية على الشرط، والفعل المضارع الذي يدل على التجدد ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ...وَيَعْمَلْ ... يُكَفِّرْ... وَيُدْخِلْهُ﴾ فالله يفتح أبوابه دوماً في كل وقت.

أما في شأن الكفار فجاءت الجملة خبرية خالية من الشرط، وبنيت على الماضي، كما أن أسلوب خطاب المؤمنين جاء بصيغة التكلم لبيان عناية الله

---

(١) الراغب، ٣٥٨.

(٢) التحرير والتنوير: ج٢٨، ٤٧٦.

(٣) سورة التغابن، آية (٩).

وإقباله على هذا الطريق، ثم انتقل الأسلوب عند الحديث عن الكفار إلى الغيبة إعراضاً عنهم.

ثم يخاطب الله المؤمنين ويسليهم على ما يصيبهم في الدنيا من أذى المشركين وفتنتهم، ويرشدهم إلى كيفية الإذعان إلى أمر الله في مثل هذه الأحوال ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ.وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ.ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(١).

والمصيبة وإن كان معناها في اللغة ما يلحق الإنسان من شر وضر، لكنها في القرآن تضاف إلى الخير وتضاف إلى الشر، شاكلة قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾(٢).

وبعد أن غرست هذه الآيات الإيمان والتوكل والاستسلام لأمر الله خاطبت السورة المؤمنين وأقبلت عليهم بأسلوب النداء بأمر قد لا يدركون أهميته.قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٣)

ومناسبتها بما قبلها أن الله لما سلى المؤمنين ببيان أن ما يصيبهم من مصائب هو من عند الله، وأرشدهم عما يفعلونه، أعقبهم بتسليتهم عما يصيبهم في الدنيا من فتنة الأزواج والأولاد والأموال.

---

(١) سورة التغابن، آية (١١– ١٣).

(٢) سورة النساء، آية (٧٩).

(٣) سورة التغابن، آية (١٤– ١٥).

وقد نادى الله المؤمنين بنداء الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ومن شأن النداء أن يصيخ الآذان، كما أن في النداء بالإيمان لفتاً إلى ضرورة أن يكونوا أهلاً لكل ما يؤمرون به، ومن شأن النداء أن يأتي بعده أمر أو نهي، لكن أعقبت الآية بتقرير حقيقة ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ﴾، ثم جاء الأمر ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾، وعلم أن الإنسان بعدائه الزوجة والولد قد يثير في النفس الرغبة في الانتقام، أو مجانبة الأزواج والأولاد، فجاء الحديث بعده مطالباً العفو عنهم ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ والكلمات الثلاثة من المترادفات لمعنى واحد، فالعفو والصفح والغفران من باب واحد، وذكرت للترغيب والحث على المجاوزة خاصة عن الأزواج والأولاد.

ثم ذيلت الآية بـ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أي: كيف لا تغفرون والحال أن الله خالق الأكوان غفورٌ رحيم بعباده.

ثم استأنفت السورة آية أخرى تتحدث عن هذه الفتنة. قال تعالى ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ وذكرت هنا فتنة المال وقدمها على فتنة الأولاد، لغلبة فتنة الأموال على الأولاد، ولم يذكر هنا فتنة الأزواج، وكأنها لخصت ما هو أكثر فتنة فحصرته في المال والولد.

وفي الآية السابقة ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ﴾ فذكرت (من) التبعيضية، لأن من الزوجات من لا تكون فتنة، بل قد تعين زوجها على طاعة الله، وحذف ذكرها في الآية الثانية، لأن حبها قد ينخلع عن قلب الرجل، أما المال والولد فحبهما ثابت.

وجاءت الجملة بالقصر بـ ﴿إِنَّمَآ﴾ وهي قصر موصوف على صفة، وهو ادعائي للمبالغة في كثرة وقوع الفتنة في هذين الطرفين، ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ

﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ معطوفة على جملة القصر، أو هي جزاء لمن صبر وصابر على تلك الفتنة، وهذه الجملة جاءت تذييلاً كالمثل.

ثم يقول تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾(١)، بدئت بالفاء الفصيحة التي تفرع على ما تقدم. وهذه الآية أرشدت إلى كيفية التعامل مع فتنة الأموال والأولاد، فأمروا أولاً بالتقوى، والتقوى: من وقى أي يجعل بينه وبين عذاب الله وقاية، وقيد الأمر بالتقوى بالاستطاعة ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ أي:مدة استطاعتكم، والاستطاعة من دعائم هذا الدين، وقيد لكل الطاعات، وفي ذلك تكريم للإنسان وعدم تكليفه ما لا يطيق.

ثم عطف على التقوى ﴿وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ من عطف الخاص على العام، فالسمع والطاعة من التقوى، وجاء الفعلان مطلقين على تقدير:اسمعوا أمر الله ورسوله، وأطيعوا الله ورسوله، ثم عطف عليها ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ لأن الإنفاق فيه نزاهة من فتنة المال وتطهير له.

وذيل الأمر بالإنفاق بجملة شرطية تبين جزاء الإنفاق ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ وهذه الجملة ساقت إلى جملة أخرى تبين فضل الإنفاق ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾(٢)، ﴿شَكُورٌ﴾: فعول بمعنى فاعل، أي: بليغ الشكر لمن يعطي لأجله، ﴿حَلِيمٌ﴾: أي كثير الحلم لا يعاجل العقوبة.

ثم تأتي خاتمة السورة ذاكرة صفات أخرى لله سبحانه وتعالى ﴿عَٰلِمُ

---

(١) سورة التغابن، آية (١٤– ١٥).

(٢) سورة التغابن، آية (١٦).

ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١)، و﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ الذي يعلم ما غاب وخفي على الخلق، و﴿ٱلشَّهَٰدَةِ﴾: كل ما ظهر ويعلمه الخلق؛ ولهذه الصفات صلة بصفاته أول السورة﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(٢)، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء، و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: الذي يفعل كل شيء لحكمة يعجز عن إدراكها الخلائق.

وهكذا ختمت السورة بما افتتحت به، لقد افتتحت بالتتريه وبيان اختصاصه بجميع صفات الكمال، وشمول القدرة للخلق، وإحاطة علمه، ثم جاءت موضوعات السورة لتدل على ذلك؛ فبينت علمه ومعرفته بأحوال الكافر والمؤمن، ثم ختمت بتوكيد التتريه الذي بدئت به السورة فذكرت صفات يتفرد بها تعالى تتره عن كل نقص.

وهكذا جاءت السورة على أحسن نظام، وأبدع نظم؛ فكانت النمط العالي والباب الأعظم الذي تلتحم فيه المعاني، وتترابط على هذه الهيئة المتفردة في النظم.

### بين سورة الحديد وسورة التغابن:

تتشابه السورتان في كثير من الموضوعات مما لا تجده في غيرها من السور التي بدئت بالتسبيح بالحمد، وسوف نحصر المعاني المتشابهة في السورتين:

-أولاً: بدأت الحديد بالتسبيح بالماضي، والتغابن بالتسبيح بالمضارع.

-ثانياً: الحديد أول سورة في التسبيح بالماضي، والتغابن آخر سورة في التسبيح بالمضارع حسب ترتيب سور القرآن.

---

(١) سورة التغابن، آية (١٧).

(٢) سورة التغابن، آية (٤).

**-ثالثاً: اتفقت السورتان على ذكر صفات الله تعالى في أول السورة.**

**-رابعاً: ذكرت السورتان أمر خلق السموات والأرض** ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾⁽¹⁾، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾⁽²⁾.

**-خامساً: ذكرت السورتان إحاطة علمه سبحانه بما خفي؛ ففي الحديد**﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾⁽³⁾ ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾⁽⁴⁾.

**وفي التغابن** ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾⁽⁵⁾.

**-سادساً: الأمر بالإيمان بالله ورسوله.قال تعالى في سورة الحديد**﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾⁽⁶⁾. **وفي التغابن** ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ﴾⁽⁷⁾.

**-سابعاً: الأمر بالإنفاق** ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ﴾⁽⁸⁾،

---

(١) سورة الحديد، آية (٤).

(٢) سورة التغابن، آية (٣).

(٣) سورة الحديد، آية (٣).

(٤) سورة الحديد، آية (٤).

(٥) سورة التغابن، آية (٤).

(٦) سورة الحديد، آية (٧).

(٧) سورة التغابن، آية (٨).

(٨) سورة الحديد، آية (٨).

وفي التغابن ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾(١).

-ثامناً: **تشبيه الإنفاق بالقرض في الحديد** ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾(٢)، ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾(٣). **وفي التغابن** ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾(٤).

- تاسعاً: **ذكر فتنة الأموال والأولاد، قال في سورة الحديد** ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾(٥). **وفي التغابن** ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾(٦).

-عاشراً: **تفصيل أحوال الخلق وجزائهم يوم القيامة** ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾(٧). ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾(٨). **وفي التغابن** ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾(٩).

---

(١) سورة التغابن، آية (١٦).

(٢) سورة الحديد، آية (١١).

(٣) سورة الحديد، آية (١٨).

(٤) سورة التغابن، آية (١٧).

(٥) سورة الحديد، آية (٢٠).

(٦) سورة الحديد، آية (١٢).

(٧) سورة الحديد، آية (١٥).

(٨) سورة الحديد، آية (١٩).

(٩) سورة التغابن، آية (٩).

– ونلاحظ أن هذه الموضوعات جاءت في سورة الحديد أكثر إسهاباً وتفصيلاً منها في سورة التغابن. فمثلاً: قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾⁽¹⁾" جاء المعنى بأسلوب القصر المفصل، أما في التغابن فقد اختصر وأوجز قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾⁽²⁾ فقد عرض المعنى بجملة قصر واحدة عريت من العطف والتفصيل، وهذا من بديع نظم القرآن في الإيجاز والإطناب لمناسبة دعت إلى ذلك.

- رابعاً: التسبيح بفعل الأمر:

جاء التسبيح بالأمر في مطلع سور القرآن في سورة واحدة؛ وهي سورة سبح، والأمر بالتسبيح فيها مخاطب به الرسول ﷺ، وفي ذلك دلالة على أن الأمر بالتسبيح يجب أن يكون دائماً غير منقطع؛ فكما هو كان في الماضي فإنه الآن في الحال والاستقبال؛ والأمر يدل على وقوع الفعل في الحال.

وتسمى هذه السورة بـــ (سورة سبح، أو الأعلى)، وقد روي أن رسول الله ﷺ كان يحب هذه السورة لكثرة ما فيها من خير له، ويقرأ بها في العيد ويوم الجمعة مع سورة الغاشية، ويقرأها كذلك في الركعة الأولى من الوتر.

وتعد ثامن سورة في ترتيب القرآن، وتقع بين التكوير والليل في التّنزول، وبين الطارق والغاشية في ترتيب المصحف، بدأت السورة بأمر التسبيح والمأمور هو النبي محمد ﷺ، واشتملت السورة على مقاصد مهمة:

١– تنْزيه الله والإشارة إلى تفرده بأمور الخلق والإيجاد.

---

(١) سورة الحديد، آية (٢٢).

(٢) سورة التغابن، آية (١١).

**٢- تأييده وتثبيته عند تلقي الوحي.**

**٣- التنويه بسماحة القرآن، وأنه تذكرة لأهل الإيمان، وشقاء لأهل الكفر والطغيان.**

**والتسبيح بالأمر جاء في مواضع متعددة في بواطن السور في تسع سور(١)؛ وكلها خطاب للرسول ﷺ.**

**وجاء التسبيح إما بالأمر بمطلق التسبيح، أو الأمر بالتسبيح بحمد الله.قال تعالى:** ﴿وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾(٢)، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾(٣)، ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾(٤).

**وجاء التسبيح** ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ **في ثلاثة مواضع من القرآن؛ اثنان في الواقعة** ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾(٥)**، ومرة في الحاقة(٦).**

**ولم يرد** ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾(٧) **إلا مرة واحدة في سورة الأعلى.**

**وقيد الأمر بالتسبيح أن يكون تسبيح اسم الرب الأعلى، وفرق بين**

---

(١) آل عمران آية (٤١)، الحجر (١٩٨)، طه (١٣)، الفرقان وغافر (٥)، ق (٣٩)، الطور (٤٨)، النصر (٣).

(٢) آل عمران، آية (٤١).

(٣) سورة الحجر، آية (٩٨).

(٤) سورة طه، آية (١٣٠).

(٥) سورة الواقعة، آية (٧٤) و (٩٦).

(٦) سورة الحاقة، آية (٥٢).

(٧) سورة الأعلى، آية (١).

التسبيح في ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ وبين ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، وبين ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، فالتسبيح المطلق كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾⁽¹⁾ فهنا التسبيح لذات الله لا لأسمائه، أما ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ فهو أبلغ لأن فيه استحضار عظمة الله في النفس حين يذكر التسبيح باسم من أسمائه، ومن العلماء من فرق بين ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ و ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ فقالوا: أن الأول تتريه الله بذكر اسمه المنبئ عن تتريهه وعلوه عما يقول الكافرون، و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي نزه الاسم عن السوء⁽²⁾.

وفي تعريف اسم بإضافتها إلى ﴿رَبِّكَ﴾ دون اسم آخر من أسمائه تعالى إشعار بأنه تعالى الخالق المدبر المربي بنعمه، القائم على شؤون خلقه، وفي إضافة الضمير الذي يعود عليه ﷺ إلى الرب تشريف له ﷺ، وأن الله هو الذي رباه وشرفه بالرسالة.

ثم وُصف تعالى بأنه ﴿ٱلْأَعْلَى﴾، والأعلى اسم يفيد الزيادة في صفة العلو، والكمال التام الدائم⁽³⁾، وهناك تناسب بين صفة العلو والتسبيح، في أن الذي ينـــزه لابد أن يتصف بصفة العلو، كما أن صفة الأعلى تناسب ما تحدثت عنه السورة من التنوية بالقرآن وعلو شأنه، وقد أمر الله تعالى الرسول ﷺ بأن يجعل قوله ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ في السجود حتى يقترن التتريه الفعلي بالتنْزيه القولي، فالإنسان في الصلاة يكون في مقام خفض متذللاً للأعلى.

ثم وصُف تعالى بثلاث صفات بدئت كل صفة باسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾،

---

(١) سورة الإنسان، آية (٢٦).

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي و ج ٣١، ص ١٣٦.

(٣) انظر: التحرير والتنوير: ج٤، ص ٤٧٩.

الذي يدل على أن هذه الصفات مختصة به وحده، وأن أمر الخلق والتسوية والتقدير والهداية مما كان يشغل النفوس الجاحدة لقدرة الله على الخلق، ويثير جدلها، ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾(١) فهو وحده الذي ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾، وقد جاءت التسوية بعد الخلق معطوفة بهذه الفاء التي تفيد التعقيب، فالتسوية على أحسن خلق يأتي بعد الخلق مباشرة، أي ترتب على الخلق تسويته وذلك دلالة على إبداع الله في الخلق، ولم يذكر مفعول الخلق للدلالة على أنه تعالى خلق كل ما هو كائن في السموات والأرض وما بينهما.

ثم جاءت الصفة الثانية (الأعلى) معطوفة بالواو ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ وهي مرحلة ثانية بعد مرحلة الخلق والتسوية في الهيئة والشكل؛ لأن الشيء يرى شكله ثم يعرف وظيفته، فالله قدر بعد تمام الخلق وكماله، والمراد من ذلك كله أنه تعالى هو الذي ضبط الأشياء على كيفيات منظمة في أجناسها وصفاتها، فقدر لكل إنسان كونه ذكراً أو أنثى، أبيضَ أو أسودَ ، سعيداً أم شقياً، ليس للإنسان فقط بل لكل المخلوقات، ثم هداها إلى أداء وظائفها كما قدر لها إلهاماً، وهذا من الضبط والإتقان الشديد لما خلقه، فلم يترك شيئاً هملاً، ويرى الإنسان في حياته بين المخلوقات ما يعجب له من قدرته على هدايته؛ فتلك النحلة التي ألهمها الله تبني خليتها بطريقة عجيبة، ثم تسبح في أرض الله، وتجلب شراباً مختلفاً ألوانه، ثم تلك النحلة التي تؤدي عملها وإلهامها كما أمرها الله إلى أن تنتهي، من الذي قدر لها ثم هداها ؟! إنه الله تعالى.

وفي طريقة تناسل الحيوان على اختلاف أنواعه حفظاً على بقاء النوع العجب العجاب، والذي لا يملك الإنسان إلا أن يقول: سبحان ربي الأعلى.

---

(١) سورة المؤمنون، آية (٨٢).

والصفة الثالثة لــ (الأعلى) ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ وصلتها بما قبلها أن قوله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ تشمل كل المخلوقات، و﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ تشمل قدرته في عالم المخلوقات الحية من إنسان وحيوان، وإخراج المرعى تبرز قدرته في عالم النبات، وفي العطف بيان لجمعه تعالى بين كل هذه الأمور على وجه الكمال.

والمرعى هو النبات الذي ترعاه الدواب رطباً، وأصله إما مصدر ميمي أطلق على الشيء المرعى، أو اسم مكان الرعي، وقد أطلق على ما ينبت فيه إطلاقاً مجازياً لعلاقة الحلول⁽¹⁾. ونرى أنه أطلق المرعى على كل ما ينفع الإنسان والحيوان، وإخراج المرعى من النبات يساوي خلق الإنسان في التمكين والقدرة، وقد عبر عن الخلق في النبات بــ﴿أَخۡرَجَ﴾ وهي فعل مزيد بالهمزة الدال على معنى التفرد في القدرة.

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ والغثاء: اليابس من النبات، والأحوى هي سمرة تضرب إلى السواد، والغثاء: يكون يابساً فتصير خضرته مائلة إلى السواد.

وسر تقديم ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً﴾ المبالغة في سرعة جفاف النبات بعد رفيفه وخضرته وجماله، فكأنه قبل أن تتم نضارته يصير غثاءً، ونلاحظ كيف وضعت لفظة ﴿أَحۡوَىٰ﴾ بجانب ﴿غُثَآءً﴾ لبيان كمال قدرته على هذا التحول.

وقد عطفت الصفات الثلاث بالواو للدلالة على كماله في كل صفة، وجاءت بالموصول الذي معناه أنه شُهر وعرف بهذه الصفات معرفة لا تخفى.ولهذه الآيات صلة بالمطلع الذي هو الأمر بالتسبيح وذلك أن وصف التسوية والهداية من بين صفات الأفعال التي تدل على استحقاق الله تعالى لتنزيهه عن كل سوء.

---

(١) التحرير والتنوير: ج ٧، ص ٤٧٩

ثم يأتي المقطع الثاني من السورة خطاباً للرسول ﷺ ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ فبعد أن بين تعالى هدايته لمخلوقاته بين هدايته وعونه لرسوله ﷺ لتلقي الوحي، وحفظ القرآن، وأنه تعالى تكفل بذلك، أو أنه تعالى بعد أن ذكر الهداية العامة لخلقه ذكر الهداية الخاصة وهي إرسال النبي ﷺ رحمة ونعمة للعالمين.

والسين في ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾ للمستقبل، وتفيد تأكيد حصول الفعل، وتدل على استمرار إقراء الله له؛ فهو وعد كريم باستمرار الوحي وتجدده، وإسناد الإقراء لله تعالى والذي يقرئه هو جبريل دلالة على أهمية وعظمة ما يترل؛ وهذا من المجاز العقلي.

ثم ترتب على إقراء الله عدم نسيانه ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ والنسيان عدم حضور المعلوم السابق في حافظة الإنسان برهة أو زمناً طويلاً، أو ترك الإنسان ضبط ما استودع إما لضعف قلبه، وإما عن غفلة، وإما عن قصد⁽¹⁾.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أي إلا الذي شاء الله أن ينساه، وفيه تذكير للرسول ﷺ ببشريته وأنه ينسى كما ينسى البشر، ولكن الله تكفل بتحفيظه ما أراد أن يحفظه، ونسيان ما أراد أن ينسيه، وهذا ما يحمله مفعول المشيئة المحذوف؛ وهو استثناء مفرغ وكأن حال الرسول ﷺ أنه يخشى نسيان القرآن؛ فيحرك لسانه مع جبريل ليحفظ ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾⁽²⁾.

وقوله ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ تعليل لجملة ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أو جملة معترضة تنزيه لله وبيان مقدار علمه، وكما جاءت تعليلاً

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ص ٤٥٠.

(٢) سورة القيامة، آية (١٦ –١٧).

فهي تأكيد لإثبات إحاطته تعالى بخلقه بـــ(الهاء) ضمير الشأن، وبالمضارع الذي يدل على التجدد والحدوث، ثم (ما) التي بمعنى الذي، والتي تخفي وراءها الإبهام دلالة على أن الله يعلم ويحيط بكل ما يخفى، وقد خولف في المقابلة بين الجهر وما يخفى؛ فالجهر ما ظهر من القول مما يعلمه الناس، وما يخفى هو أمر مستقبلي مبهم يتجدد دائماً، فلذلك عبر عنه بالمضارع، وكأن وراء الكلمة غياهب سحيقة ممتدة يعبر عنها صوت حرف الألف الممدودة لا يدركها إلا الله سبحانه وتعالى.

ثم ذكر الله تعالى نعمة أخرى أنعم بها على هذا النبي المصطفى ﷺ ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي نسخرك ونهيئك للأمور اليسرى في أمر الدين، وقد استعير التيسير هنا للتسخير والتهيئة، كما أن في التعبير مشاكلة في اللفظ بين (نيسر واليسرى).

وأصل المعنى نيسر اليسرى لك، أو نيسر لك اليسرى، وقد جاء هنا على طريقة القلب أو العدول عن مقتضى ظاهر النظم؛ وهذا باب ذكي في البلاغة فيه تنْزيل الشيء الميسر منْزلة الشيء الميسر له، وذلك للمبالغة في ثبوت الفعل للمفعول مثل قوله تعالى ﴿ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ ﴾⁽¹⁾ ومعناه: ما إن العصبة لتنوء بمفاتحه.

وفي الآية إشارة إلى التربية الإلهية لهذا النبي ﷺ فهو يقرؤه وييسر له، وهذا مناسب لقوله تعالى بدءاً ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ فهو وعد من ربه بتيسير أعباء الرسالة فلا تشق عليه.

ثم بعد أن ثبّت الله النبيﷺ وأزال خوفه وطمأنه أمره بما يجب عليه ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى

---

(١) سورة القصص، آية (٧٦).

ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾(١) هذه الفاء تسمى (فاء) التفريع؛ فرعت النتيجة على المقدمات(٢) وهي الأمر الذي بعث الله من أجله ﴿ فَذَكِّرْ﴾ وجاءت جملة ﴿ فَذَكِّرْ﴾ وكأنها قطب الرحى، وذروة الأمر الذي بعث من أجله، وقد أمر الرسول ﷺ بهذه اللفظة في مواضع كثيرة من القرآن. قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣)، ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾(٤)، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾(٥) حتى أجهد الرسول ﷺ نفسه وسلك كل طريقة ليحقق أمر ربه، وفي هذا التكرار المداومة والاستمرار والأخذ بالعزم؛ وقد أطلق الذكر على القرآن. قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾(٦).

ثم جاءت جملة ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ جملة معترضة بين جملتي العلة وعلتها، وجاء الشرط بـ (إن) التي قال عنها البلاغيون: إنما تستعمل في الشرط غير المقطوع بوقوعه، أو ندرة وقوعه، وفي ذلك تعريض بأن في القوم من لا تنفعه الذكرى، وأن الحال في الناس النفور وعدم الاستجابة. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾(٧)، ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

---

(١) سورة الأعلى، آية (٩– ١٣).

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ج ٣٠، ص ٤٧٩٨.

(٣) سورة الذاريات، آية (٥٥).

(٤) سورة الطور، آية (٢٩).

(٥) سورة الغاشية، آية (٢١).

(٦) سورة الحجر، آية (٩).

(٧) سورة يوسف، آية (١٠٣).

يَعْلَمُونَ ﴾(١) وفي ذلك استثارة للقلوب المؤمنة الحية.

ثم بين حال الناس أمام هذه الذكرى. فقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾(٢) ودخلت السين على (يذكر) التي تعني وقوع المضارع في وقت قريب، وفي ذلك مدح لمن يؤمن فور سماعه الهدى، وأن له قلباً يستجيب به إلى داع الخير.

ثم وصف هذا المتذكر بأنه﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ أي من خاف أن يحق عليه ما أنذر به، وهذه الخشية هي ثمرة النفع بالذكرى، والخشية غير الخوف؛ فالخشية تكون عن يقين صادق بعظمة من يخشاه، والخوف يحدث من تسلط بالقهر والإرهاب(٣).

أما القسم الثاني: فهو الذي لا ينتفع بالذكرى ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ والتجنب: التباعد، ومعنى جُنب فلان أي أُبعد عن الخير(٤). والأشقى: اسم على وزن أفعل التفضيل؛ أي شديد الشقاوة، والمؤمن يخشى وهذا أشقى.

ثم ذكر الله تعالى عقوبته فهو ﴿يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾: أي نار الآخرة، وسماها القرآن الكبرى نظراً إلى النار الصغرى وهي نار الدنيا، ووصفت بالكبرى تهويلاً لها، وفي مقابلة ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ بـ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ إيذان بأن المؤمن دائم الخشية، دائم التذكر، والأشقى سادر في غروره، منغمس في لهوه على حالة واحدة لا يكاد يرفع رأساً.

---

(١) سورة الأعراف، آية (١٨٧).

(٢) سورة الأعلى، آية (١٠ -١٣).

(٣) انظر: الإعجاز البياني للقرآن، د. عائشة عبد الرحمن، ص٢٠٩.

(٤) المفردات، ص٩٩.

وعطف على جملة الجزاء جملة صلة أخرى ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ (ثم) للعطف مع التراخي الرتبي؛ أي تراخى عنه في مراتب الشدة، فهي مرتبة أعلى مما سبقها، فتردد حاله بين الحياة والموت أشد من عذاب الاحتراق، وليس المعنى أن نفي الوضعين إثبات حالة الوسط بينهما، بل المعنى كناية عن استمرار العذاب وتصعده، وقد عبر عنه القرآن في آية أخرى بقوله تعالى ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾(١).

ثم تفرعت من هذه الجملة التي فيها وعيد للكافرين جملة وعد للمؤمنين فقال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ جملة استئنافية، وهي بيان لجزاء من يخشى مؤكداً بــ(قد) التحقيق، والفلاح هو نجاح المرء فيما يطمح إليه، ومن يتزكى هو من يخشى؛ فالثانية جاءت نتيجة للأولى؛ فالتزكي نتيجة الخشية، والتزكية تطهير النفس من كل دنس وذلك بالعمل الصالح، و﴿تَزَكَّىٰ﴾ على وزن تفعّل التي تعني التكلف وبذل الجهد، وهذا يعني أن هذه المترلة الرفيعة لا تأتي إلا بالمجاهدة والمصابرة فهي نتيجة التسبيح الذي أمر به تعالى في أول السورة.

كما أن من أعظم الأعمال المزكية الذكر والصلاة، فلذلك ذكر تعالى من صفاقم ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ وكأنه استجاب لأمر ربه أول السورة ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ والذكر هو تمجيد الله وتسبيحه بلسانه وقلبه.

وذكر اسم الرب أي ذكر أسماء الله بالتعظيم، وبذلك تمت بصلة إلى الآية الأولى، قال بعض المفسرين ذكر موقفه بين يدي الله فصلى له، أو أنها الزكاة زكاة الفطر، والذكر تكبير العيد والصلاة صلاة العيد، ورده بعضهم فقال: إن عادة القرآن تقديم الصلاة على الزكاة لا العكس، ثم إن السورة مكية ولم يكن

---

(١) سورة فاطر، آية (٣٦).

بمكة عيد ولا زكاة فطر(١).

ونلمح من الآية أن كل من ذكر الله بقلبه وتذكر ثوابه وعقابه دعاه ذلك إلى اللجوء إلى الله بالصلاة، ونرجح أن يكون المراد بالذكر هو حضور عظمة الله واستجابته للأمر الأول بالتسبيح؛ لأن كلمة اسم تدل على شأن الله وصفات عظمته، ثم إن هذا الذكر يبعث المؤمن على تعظيم الله والتقرب إليه بالصلاة التي هي خضوع وانقياد؛ وبذلك يحصل الإيمان ويحصل المراد من الأمر في أول السورة بتسبيح الله تعالى، وهكذا تتدرج نفس المؤمن حتى تبلغ الكمال.. يتزكى.. يذكر اسم الله... يصلي.

بعدها خاطب الله الكفار بقوله ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾(٢) (بل) حرف إضراب يأتي لانصراف القول والحكم إلى ما بعده ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ﴾(٣)وقد يأتي هذا الحرف ومعناه مجرد الانتقال من خبر إلى خبر كما في هذه الآية، وهي تبين سبب إعراض الأشقياء عن الذكرى، وجاءت الآية موعظة وتوبيخاً لكل من يركن إلى الحياة الدنيا مؤمنين وغير مؤمنين، وفي ذلك إيقاظ للمؤمنين عن الركون إلى الدنيا.

ثم تختم السورة بقوله تعالى ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾(٤) والمقصود بـ﴿إِنَّ هَـٰذَا﴾ الوعظ بالتسبيح

---

(١) انظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي، ج٣، ص١٤٨.

(٢) سورة الأعلى، آية (١٦ -١٧).

(٣) سورة المؤمنون، آية (٧٠).

(٤) سورة الأعلى، آية (١٨ -١٩).

الذي ذكر في أول السورة، وما كان نتاجه من تزكية وذكر وصلاة وإعراض عن الدنيا وإقبال عن الآخرة، ﴿ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾: الصحف النازلة من عند الله، وهي صحف إبراهيم التي قيل إنها أقرب إلى الوعظ، ثم ختم بصحف موسى؛ لأن الغالب فيها الأحكام والزواجر البليغة، وكلها تحث على التطهير من الأدناس والتزكي والتنزه والتخلق بالأخلاق التي أمر الله بها، واستحق بذلك تنْزيهه وتسبيحه.

* * *

## نتائج البحث:

وبعد هذه الرحلة التي تسبح في المسبحات في القرآن خرجنا بنتائج مهمة لهذه الدراسة وهي:

١ – التسبيح بصيغه المختلفة كمل بعضه بعضاً، فقد عبر عن هذا المعنى بجميع جهاته الأربعة، وذلك في بداية سورٍ أربع، حيث استوعبت الكلمة من جميع جهاتها فابتُدئ بالمصدر في سورة الإسراء، والمصدر صالح لجميع معانيه إثباتا أن هذا المعنى ثابت له مطلقاً غير مقيد بزمان، ثم ثنى بالماضي في أول الحديد والحشر والصف تصريحاً بوقوع ما أفهمه المصدر في الماضي الذي يشمل أزل الآزال، ثم ثلث في أول الجمعة والتغابن بالمضارع الذي يفهم به دوام التجدد، ثم لما تم ذلك من جميع وجوهه توجه الأمر إلى رسول الله ﷺ فخصت به سورة دلالة على أهمية التسبيح(١).

يقول الفخر الرازي: (في ورود التسبيح بهذه الصيغ دلالة أن تسبيح الله تعالى دائم غير منقطع؛ فالماضي يدل على ما مضى من الزمان والمستقبل يدل على المستقبل من الزمان والأمر يدل عليه في الحال)(٢).

ويعلل أحمد بن الزبير الغرناطي ورود أكثرها على التعبير بالماضي: (وإنما تقدم الماضي لثبات رتبه ووجوداً قبل المضارع، ثم اتبع بما يقتضي الاستمرار، وكان ورود أكثرها على التعبير بالماضي لأنه أوضح في استحكام الثبات وامتداده، فورد هذا كله على أنسب وجه)(٣).

---

(١) ذكرها ابن عاشور في بداية تفسير سورة سبح، ج٢١، ص٣٩٠.

(٢) ج٢٩، ص٣١١.

(٣) ملاك التأويل لأحمد بن الزبير الغرناطي، ج٢، ص٨٩١.

٢- أن سور التسبيح بالماضي والمضارع محصورة في أواخر الجزء السادس والعشرين وأول السابع والعشرين، وقد كملت بعضها بعضاً، قال تعالى في آخر سورة الواقعة ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ ثم بدئت سورة الحديد ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فذكرت صفاته الجليلة منها: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾⁽¹⁾، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾⁽²⁾، بعدها جاءت المجادلة لتبين صفته حين سمع قول المجادلة في زوجها ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾⁽³⁾ كذلك قالت عائشة رضي الله عنها حين نزلت: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، إني لفي ناحية البيت لا أعرف ما تقول⁽⁴⁾. ثم ختمت المجادلة بذكر مجافاة المؤمنين لمن أشرك بالله ﴿ ٱللَّهَ حَآدَّ﴾⁽⁵⁾ من أقربائهم.

نزلت الحشر في ذكر حالة اليهود الذين شاقوا الله ورسوله من المعاهدين من أهل الكتاب، ثم جاءت الممتحنة وكأنها تكمل الحشر فذكرت المعاهدين من المشركين، ونهت عن اتخاذ الكفار أولياء، وأمرت بالجهاد لذلك جاءت الصف بعدها بالأمر بالجهاد، وذكرت أحوال اليهود مع موسى وعيسى عليهما السلام، ثم اتبعت بسورة الجمعة التي بينت حال المؤمنين مع رسولهم ﷺ، ثم جاءت سورة المنافقين ليتبين أحوال أضداد المؤمنين وهم المنافقون، وقد كان رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة يحرض بها المؤمنين، وبسورة

---

(١) سورة التغابن، آية (٤).

(٢) سورة الحديد، آية (٤).

(٣) سورة المجادلة، آية (١).

(٤) أسرار ترتيب القرآن، للسيوطي، ص١٣٦.

(٥) سورة المجادلة، آية (٢٢).

المنافقين يفزع بها المنافقين.

ثم تلتها سورة التغابن فذكرت أحوال الكفار، ثم ختمت بما بدئت به سورة الحديد ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١)، وكأن ما بين هاتين الآيتين تسبيح لله فهو ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وبهذا اتضحت المناسبة في ترتيب هذه السور الست، فقد اشتملت على أصناف الأمم، وهذا الفصل بين المسبحات بسورة جاءت كأنها تكملة للمسبحة السابقة لها، وفي هذا الفصل حكمة لا يعلمها إلا الله.

٣- كل السور تحدثت عن اليهود وباطلهم، فالإسراء تحدثت عن تاريخهم، والحديد تحدثت عن رهبانيتهم، أما الحشر فتحدثت عن إخراجهم، والصف تحدثت عن خروجهم على نبيهم موسى عليه السلام وفي الجمعة زعمهم أنهم شعب الله، أما التغابن فحكت عن المكذبين السابقين ومن جملتهم اليهود وتهكمهم بأنبيائهم.

٤- ملئت السور بذكر أسماء الله وصفاته كالحديد والحشر والتغابن.

٥- ترتيب المسبحات ترتيباً لغوياً منطقياً، بدئ بالمصدر ثم الفعل الماضي ثم المضارع ثم الأمر.

٦- عدد المسبحات سبع وكثير من الأمور الإيمانية ذكرت هذا الرقم، ولهذا العدد شأن في القرآن.

والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.

وما قلناه ليس إلا اجتهاداً قد يصيب ويخطئ، نسأل الله المغفرة عن زلل القول.

---

(١) سورة التغابن، آية (١٨).

# فهرس المراجع

١– إرشاد العقل السليم: أبو السعود محمد الصادي، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

٢– أسرار ترتيب القرآن: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: عبد القادر عطا، دار الاعتصام، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.

٣– الإعجاز البياني للقرآن: د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، دار المعارف، الطبعة الثانية.

٤– التحرير والتنوير: الإمام محمد الطاهر بن عاشور.طباعة الدار التونسية للنشر.

٥– تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠هـ، دار الفكر، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٤م.

٦– التفسير الكبير: فخر الدين بن حسين الرازي، بيروت، دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

٧– درة التنْزيل وغرة التأويل: للخطيب الإسكافي ت٤٢٠هـ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٧م.

٨– دلالات التراكيب: محمد أبو موسى، القاهرة، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية.

٩– روح المعاني: شهاب الدين محمود الالوسي– إدارة المطبعة المنيرية – بيروت .

١٠– لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، بيروت، دار صادر.

١١– مغني اللبيب: للإمام أبي محمد عبد الله بن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ت٧٦١هـ، القاهرة، مطبعة المدني.

١٢– المفردات في غريب القرآن: لأبي القاسم الراغب الأصفهاني ت٥٠٢هـ، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

١٣– ملاك التأويل: أحمد بن الزبير الغرناطي ت ٧٠٨هـ، تحقيق: د. محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

# فهرس الموضوعات

المقدمة: ........................ ٩٣
- معنى التسبيح: ........................ ٩٤
- أنواع التسبيح: ........................ ٩٦
- أولاً: التسبيح بالمصدر: ........................ ٩٦
- ثانياً: التسبيح بالفعل الماضي: ........................ ١٠٦
- سورة الحديد: ........................ ١٠٦
- سورة الحشر ........................ ١٢٥
- سورة الصف ........................ ١٤٣
- ثالثاً: التسبيح بالفعل المضارع: ........................ ١٥٠
- سورة الجمعة: ........................ ١٥٠
- سورة التغابن: ........................ ١٥٨
- رابعاً: التسبيح بفعل الأمر: ........................ ١٧٢

نتائج البحث: ........................ ١٨٤
فهرس المراجع ........................ ١٨٧
فهرس الموضوعات ........................ ١٨٨